(مكة المكرمة ودمشق في رحلة ابن جبير دراسة لبعض الجوانب الحضارية ـ العمارة الدينية والأسواق أنموذجا)

د. علي النغيمشي ـ أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد قسم التاريخ
كلية اللغه العربية و الدراسات الاجتماعية بجامعة القصيم

الملخص:
تناولت هذه الدراسة مكة المكرمة ومدينة دمشق، من خلال رحلة ابن جبير، وقد ركز البحث على جانبين هما العمارة الدينية والأسواق والسلع التجارية وما يلحق بها من مرافق في المدينتين، وتعد هذه الرحلة أصدق مرآة للعصر الذي عاش فيه صاحبها، حيث إن ما كتبه يعدُّ مصدرا مهماً من مصادر مكة المكرمة ومدينة دمشق في القرن السادس، وما تحويه المدينتان من آثار وعمائر دينية ومدنية وأسواق تجارية، كان وصف ابن جبير للأماكن الدينية أكثر تفصيلا كما سيتضح في البحث لاحقا. فهو يصف المسجد الحرام وصفا دقيقاً، لا يترك فيه صغيرة ولا كبيرة. ويصف داخل الكعبة المشرفة بدقة متناهية، فقد أمضى مدة طويلة نسبيا بمكة أتاحت له دخول الكعبة عدة مرات والتدقيق فيها، وكذلك فقد اهتم بدمشق اهتماما كبيرا وعدَّها جنة الشرق، وتحدث عن تفاصيل كثيرة لهذه المدينة حتى تربتها التي سئمت كثرة الماء حتى اشتاقت للظمأ على حد قوله، وأسهب في وصف الجامع الأموي في دمشق وما يلحق به من مرافق ومقصورات وقباب وأبواب ودور للأيتام وغير ذلك من آثار ومشاهد المدينة.

"A study of some Makkah and Damascus in "Travels of Ibn Jubayr aspects of civilization: Religious Architecture and Markets as Models

Dr. Ali Nughaimshi
Assistant Professor of Medieval History, Department of History
College of Arabic Language and Social Studies, Qassim University

ABSTRACT

This study investigates Makkah and Damascus as illustrated in **Travels of Ibn Jubayr**. It focuses on two aspects: the religious architecture, the markets, the commercial goods and the accompanying facilities in the two cities. This journey is the truest mirror of the era in which the author lived. What he wrote is an important reference source on both Makkah and Damascus in the sixth century, with what the two cities enjoyed in archeological sites such as monuments, religious buildings and commercial markets. Ibn Jubayr's description of religious places was more detailed, as will be shown in this research later. He accurately described the Grand Mosque and the interior of Kaaba with precision and exactness. Spending a relatively long time in Makkah gave him a chance to enter Kaaba several times and scrutinize it. He was also interested in Damascus, and considered it the Paradise of the East. He mentioned many details of this city, even its soil which, he said, is fed up with the abundance of water and yearns for thirst. He elaborated on the Umayyad Mosque in Damascus and the accompanying facilities, booths, domes, gates, orphanages, monuments and the other sights and archeological signs of the city.

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين أجمعين وبعد؛ يعد ما كتبه ابن جبير في رحلته وثيقة مهمة صادقة؛ ذلك أنه كتب وسجل ما شاهده وعاينه، وقدَّم لنا صورة تنطق بحقيقة واقع ما شاهده من حالة اجتماعية وأنشطة اقتصادية مختلفة.

لقد عرَّف ابن خلدون التاريخ بأنه خبر عن الاجتماع الإنساني وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلم والصنائع وسائر ما يحدث في ذلك المجتمع من أنشطة. ومن هنا تنبع أهمية رحلة ابن جبير كونه كان شاهدا قدم لنا إشارات مهمة على جوانب الحياة المختلفة في مكة المكرمة ودمشق، وجاء اختيار الباحث لهاتين المدينتين بسبب التشابه الكبير فيما كتب عنهما من وصف للعمارة الدينية في الحرم المكي والجامع الأموي في دمشق، إضافة إلى المشاهد والقبور الموجودة في المدينتين.

وهناك جانب آخر لأهمية هذه الرحلة؛ أنه كتب بعيون غريبة عن المناطق التي زارها في المنطقتين، وقد تمتع ابن جبير بقوة الملاحظة وقدرته على الوصف الحي الدقيق، بعبارات سلسة مليئة بالحيوية المتدفقة بين سطورها.

وقد بدأ البحث بالتعريف بابن جبير ورحلته، وقسمت هذه الدراسة إلى فصلين، تناول الأول مكة المكرمة وموقع الحرم ومداخله، ووصف عمارته، ووصف الكعبة المشرفة، ومكان السعي، ومقام إبراهيم عليه السلام، وماء زمزم، والمشاعر في منى وعرفات، ثم تطرق هذا الفصل إلى دورها ومقابرها وأسواقها المختلفة.

أمَّا الفصل الثاني: فتناول مدينة دمشق فوصف جامعها الأموي وصفا دقيقا، وتطرق إلى مرافق المدينة وآثارها وأسواقها وأهم السلع، وقد تطرقت الدراسة إلى الآثار كقلعة دمشق والمشاهد الدينية والمقابر في المدينة. وقد اختتم البحث بإبراز لأهم نتائج هذا البحث، وقائمة للمصادر والمراجع.

التعريف بابن جبير[(١)]:

هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير بن محمد بن جبير بن سعيد بن جبير بن سعيد بن محمد بن مروان بن عبد السلام بن مروان بن عبد السلام بن جبير الكناني. قد ذكرت المصادر روايات عديدة لنسبه[(٢)] وكذلك اختلف في كنيته[(٣)] فقد كناه البعض بأبي الحسن، وآخرون بأبي الحسين[(٤)]، وقد اختلف أيضا في مكان مولده[(٥)] أنه ولد في مدينة بلنسية[(١)] في العاشر من ربيع الأول سنة٥٤٠ ه/١١٤٥م وسكن مدينة شاطبة[(٢)]،

(١) للمزيد ينظر المراكشي، أبو عبد الله محمد الأنصاري ،الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ،١٩٦٤ ، ص٥٩٥ ، سيشار إليه تاليا: المراكشي الذيل ، ٢١-التجيبي، القاسم بن محمد، مستفاد الرحلة والاغتراب، تحقيق عبد الفيض منصور، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس ١٩٧٥ ،ص٢٤٣ ،سيشار إليه تاليا: التجيبي ،مستفاد ،ابن الخطيب، لسان الدين (٧٧٦هـ/١٣٧٤م)، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق عبد الله عنان، ط١، الشركة المصرية للطباعة والنشر، القاهرة ،ص٢٣٠ ،سيشار إليه تاليا:، ابن الخطيب، الإحاطة، ابن الجزري ،الإمام شمس الدين الدمشقي، ت٨٣٣هـ ،غاية النهاية في طبقات القراء دار الكتب العلمية، بيروت ،١٩٧١ ،ج١، ص ٦٠، سيشار إليه تاليا: ابن الجزري، غاية، ج٢، ص٦٠؛ المقري أحمد بن محمد (١٠٤١هـ/١٦٣١م)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ج٢، ص١٩٦٨،٢٨٢سيشار إليه تاليا: المقري ، نفح الطيب، ابن الجزري، غاية، ج٢، ص٦٠، عبد العزيز قاسم أحمد، ابن جبير حياته وأدبه، رسالة ماجستير ، جامعة اليرموك، الأردن،١٩٩٢ ،ص٨،سيشار إليه تاليا أحمد، ابن جبير ، ص٨.

(٢) للمزيد ينظر المراكشي، الذيل، ص٥٩٥، التجيبي، مستفاد، ص٢٤٣، ابن الخطيب، الإحاطة، ص٢٣٠، ابن الجزري، غاية، ج٢، ص٦٠؛ المقري ، نفح الطيب، ج٢، ص٣٨٢،ابن الجزري، غاية، ج٢، ص٦٠، أحمد، ابن جبير ، ص٨.

(٣) ينظر المقري ، نفح الطيب، ج٢، ص٣٨١، الذهبي ، سير أعلام النبلاء،، تحقيق بشار عواد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص ٤٦، سيشار إليه تاليا :الذهبي ،سير.

(٤) المنذري ، زكي الدين، التكملة لوفيات النقلة، تحقيق بشار عواد معروف مؤسسة الرسالة، بيروت، ج٢،ص٤٠٢ سيشار إليه تاليا: المنذري ،التكملة.

(٥) ابن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ص٢٣٩.

وغرناطة[٣]. وتوفي بالإسكندرية في التاسع والعشرين لشعبان سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م. وقد عاش من العمر أربعاً وسبعين سنة[٤].

نشأ ابن جبير في أسرة علم[٥] تنتمي إلى بلدة شاطبة بالأندلس، وكان والده من أعيانها وأبرز كتابها[٦] وتعهده أبيه برعايته واهتم بتربيته وتعليمه. فأخذ ابن جبير العلم عن معلمه الأول وهو أبيه[٧] وعن أربعة وعشرين شيخاً من علماء عصره[٨]، فدرس العلوم الدينية واللغوية، وبرع في الأدب والكتابة[٩]، وبلغ مكانة عالية فيهما. وأقبل على القراءة وخاصة أشعار القدماء من العرب، وسرعان ما استهواه الشعر ونظمه[١٠]، فأصبح ناظما للشعر والنثر[١١]. ثم أديباً بارعاً وشاعراً مجيداً، كريم الأخلاق، أنيق الخط، ذا نظم ونثر بديع حسن، ذائع الصيت، مشهوراً بالخير والصلاح ، وعلى كثرة ما كتب ونظم وحدث وعلم، فلم يترك غير مجموعة من القصائد، منها: ديوان "نظم الجمان في التشكي من إخوان الزمان"[١٢]. و"نتيجة وجد الجوانح في تأبين القرين والصالح" في رثاء زوجته أم المجد[١٣]. وكتابه، الذي يضم رحلته، وعنوانه " تذكرة الأخبار عن

(١) بلنسية: مدينة مشورة في الأندلس تقع إلى الشرق من قرطبة، انظر شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت١٩٩٣، ج١،ص٤٩٠،سيشار إليه تاليا: الحموي ، معجم .

(٢) ابن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ص٢٣٩، شاطبة من مدن الأندلس الشهيرة قرب قرطبة ينظر، الحموي معجم، ج١، ص٣٠٨.

(٣) ابن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ص٢٣٩.

(٤)المنذري ، التكملة، ج، ٢، ص٤٠٧.

(٥) قنديل، فؤاد، أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة ٢٠٠٢، ص٣٨٤، سيشار إليه تاليا: قنديل، أدب الرحلة، ص٣٨٤.

(٦) المقري، نفح الطيب، ج٢، ص٣٨٤ .

(٧) المقريزي، المقفى الكبير، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩١، ص١٥٨ سيشار إليه تاليا: المقريزي، المقفى الكبير، ص١٥٢.

(٨) عبد القدوس الأنصاري، مع ابن جبير في رحلته، ط١، المطبعة العربية الحديثة، القاهرة ١٩٧٦، ص٣٩،سيشار إليه تاليا: الأنصاري، مع ابن جبير.

(٩) المقري، نفح الطيب، ٢، ص٣٨٢.

(١٠) الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ،المكتب التجاري للنشر، بيروت، د.ت،ص٦١، سيشار إليه تاليا :الحنبلي، شذرات،

(١١) أبو سعيد بن عبد المؤمن الكومي عينه والده على سبة سنة ٥٤٧هـ/١١٥٢م وعلى غرناطة سنة ٥٤٩/١١٥٤ وأقره على غرناطة أخوه يوسف بن عبد المؤمن سنة ٥٦١هـ/١١٥٦م،ابن خلدون ، العبر ، تحقيق: أبو صهيب الكرمي. بيت الأفكار الدولية. بيروت،د.ت، ج ٦، ص٢٢٩، ٢٣٦، ٢٣٩، سيشار إليه تاليا: ابن خلدون، العبر.

(١٢) ابن القاضي، جذوة الاقتباس في من حل على مدينة فاس، دار المنصور ،الرباط ،١٩٧٣،ج١،ص٢٧٨ سيشار إليه تاليا: ابن القاضي، جذوة الاقتباس؛ عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين، مكتبة فهد الوطنية، الرياض ١٩٩٦،ص٩٩،سيشار إليه تاليا: نواب، الرحلات المغربية

(١٣) شكيب أرسلان، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية ، مؤسسة هنداوي للتعليم ، القاهرة ،٢٠١٢، ج ، ص، سيشار إليه تاليا : أرسلان، الحلل١١٨.

اتفاقات الأسفار" أو رحلة الكناني[١]، الذي نشره المستشرقون باسم "رحلة ابن جبير" ورسالة أخرى باسم "اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك"[٢].

تنقل ابن جبير في مطلع حياته في عدد من المدن الأندلسية والمغربية، فقطن بلنسية وشاطبة وغرناطة وسبتة وفاس وتقلب في المناصب الكتابية. ويعد أحد كتاب الدولة الموحدية[٣]، وتمتع بمكانة عالية لديهم. وذاع وذاع صيته حتى عرف في غرناطة وسمع به حاكمها السيد أبي سعيد بن عبد المؤمن،[٤] فأمر بأن ينضم إلى كتاب ديوانه، ولما جلس إليه أحبه وقربه، وكان يدعوه إلى مجالسه كلها،[٥] وقد استدعاه ذات يوما ليدون له كتاباً وهو على شرابه، فمد يده إليه بكأس فأظهر الانقباض لأنه لم يشرب قط، فأقسم السيد ليشربن منها سبعاً؛ ففعل مرغماً، فملئت له الكأس دنانير سبع مرات، فحمل المال إلى منزله، وأضمر أن يجعل كفارة شربه الحج بتلك الدنانير، ولما أظهر ذلك للسيد أسعفه في قصده[٦].

التعريف بالرحلة:

لقد تعددت رحلات ابن جبير فبلغت ثلاث من الأندلس إلى المشرق وحج في كل واحدة منها. وكانت دوافع هذه الرحلات متعددة منها دوافع لطلب العلم،[٧] والدافع الأهم وهو الديني لتأدية فريضة الحج،[٨] كانت كانت الرحلة الأولى من غرناطة سنة ٥٧٨هـ/١١٨٣. وفي عام ٥٨٥هـ/١١٨٩ كانت الرحلة الثانية وعاد عام ٥٨٧ هـ. ثم الرحلة الثالثة من سبته بعد موت زوجه عاتكة أم المجد سنة ٦٠١هـ/١٢٠٥ م، فوصل مكة وجاور بها طويلاً ثم بيت المقدس، ثم تحول إلى مصر والإسكندرية، فأقام يحدث ويؤخذ عنه إلى أن وافته المنية بالإسكندرية سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م [٩].

خرج ابن جبير من غرناطة يوم الخميس ٨ شوال سنة ـ٥٧٨هـ/م١١٨٣، ووصل إلى الإسكندرية بعد ثلاثين يوما قضاها في البحر بين سبته وبينها. ثم اتخذ سبيله إلى القاهرة، ومنها اتجه جنوباً إلى قوص وانتهى إلى عيذاب على ساحل البحر الأحمر، ومن عيذاب عدى البحر إلى جدة في طريقه إلى مكة والمدينة، وفي طريق عودته بعد تأدية فريضة الحج، اجتاز الطريق النجدي إلى الكوفة وزار بغداد والموصل، وعاد بطريق

(١) ذكرت أسماء مختلفة لرحلة ابن جبير وهي: تذكرة بالأخبار عن اتفاق الأسفار ، زيادة، نقولا، رواد الشرق العربي في العصور الوسطى ،دار لبنان للطباعة ،١٩٦٨،ص٨ ،سيشار إليه تاليا: نقولا، رواد، ٤؛ زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى زكي ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ، القاهرة ،٢٠١٢،ص٧، سيشار إليه تاليا زكي ،الرحالة ، خليفة، حاجي، كشف الظنون كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار صادر ،بيروت ١٩٧٩،ج١،ص٨٣٦، سيشار إليه تاليا: خليفة، كشف الظنون.

(٢) المراكشي ،الذيل والتكملة،ج٥، ٢/٥ ،ص٦٠٤ ،وقد أشاد بعض المستشرقين بهذا الرحالة ، ينظر، كراتشكوفيسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، منشورات جامعة الدول العربية ، دار لسان العرب، القاهرة ،١٩٨٤، ج١، ص٣٠١، سيشار إليه تاليا: كراتشوفسكي، تاريخ، انظر: عكاوي، رحاب خضر، موسوعة عباقرة الإسلام، القاهرة، د.ت ،ج٢،ص ١٦٦،سيشار إليه تاليا : عكاوي، موسوعة عباقرة.

(٣) عمل ابن جبير كاتبا عند ابي سعيد ين عبد المؤمن حاكم دولة الموحدين في المغرب وله معه حكايات ،للمزيد ينظر ،ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج٢، ص٢٣٧،المراكشي، الذيل ج٥، ص٦٠٨.

(٤) أبو سعيد بن عبد المؤمن الكومي عينه والده على سبة سنة ١١٥٢/٥٤٧ وعلى غرناطة سنة ١١٥٤/٥٤٩ وأقره على غرناطة أخوه يوسف بن عبد المؤمن سنة سنة هـ .٥٦١/م١١٥٦، انظر: ابن خلدون ، العبر ٦،ج٦،ص٢٢٩، ٢٣٦، ٢٣٩.

(٥) قنديل، أدب الرحلة ، ٣٨٤.

(٦) المقري، نفح، ج ٢،ص٣٨٥؛ زيادة، الجغرافية ١٦٠.

(٧) أحمد، رمضان أحمد، الرحلة والرحالة المسلمون، دار البيان العربي، جدة، د.ت ،ص٧-١١،سيشار إليه تاليا: رمضان ، الرحلة ، ص٧-١١.

(٨) حسين نصار، أدب الرحلة ،الشركة المصرية العالمية للنشر، القاهرة ١٩٩١ ، ص١٩،سيشار إليه تاليا: نصار ،أدب ، علي محسن عيسى مال الل ، أدب الرحلات عند العرب : نشأته وتطوره حتى نهاية القرن الثامن الهجري، وزارة الثقافة والفنون – بغداد، ص١٢، سيشار إليه تاليا :، مال الله، أدب الرحلة .

(٩) أحمد، الرحلة ،٣٢٩.

سورية، فمر بحلب وحماة والنبك ودمشق وانتهى إلى عكا، ومنها أقلع إلى صقلية مارا بصور وعاد إلى غرناطة فوصلها في الثامن من محرم سنة هـ١١٨٥/٥٨١م [١]، دخل ابن جبير مكة يوم الخميس ١٣ ربيع الآخر سنة ١١٨٣/٥٧٩ من باب العمرة، ودخل المسجد الحرام، وشاهد الكعبة، فطاف طواف القدوم، وصلى بمقام إبراهيم، وتعلق بأستار الكعبة، ودخل قبة زمزم، وشرب من مائها، ثم سعى بين الصفا والمروة، وحلق وتحلل وحمد الله على إكرامه بالوفادة عليه [٢]، فكانت مدة مقام ابن جبير بمكة من يوم وصوله إليها، إلى يوم إقلاعه من الزاهر وهو يوم الخميس ٢٢ ذي الحجة سنة ٥٧٩ هـ/م١١٨٣، ثمانية أشهر وثلث شهر (٣).

دون ابن جبير رحلته الأولى على شكل مذكرات يومية يستعمل فيها التاريخيين الهجري والميلادي دون ذكر السنة الشمسية[٤]. وقد كتب ابن جبير رحلته، بلغة سهلة بسيطة، عباراتها مفصلة على قد ما تحمل من معان، دون استطراد أو تكرار، وتتسم عبارته بجمال التركيب وحلاوة البيان، وهو يجيد صناعة السجع وسبكه فيضفي على النص موسيقى جذابة تشجع على مداومة المطالعة، ومعظم السجع يأتيه بلا تكلف، ولا يضطر له اضطراراً إلا في القليل. كما استشهد ابن جبير بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية في مكانها الملائم في الرحلة، بالإضافة لاستعماله لبعض الكلمات العامية المستخدمة لدى أهل كل بلد مر به. كل ذلك أعطى لرحلته قيمة علمية كبيرة أثرت كثيرا في اللاحقين من الرحالة فنقلوا عنه بعض عباراته، ومنهم ابن بطوطة.

حوت رحلة ابن جبير الكثير من الفوائد والتجارب والمعرفة التي يحرص كل مؤرخ أو جغرافي أو أديب الاستفادة منها، حيث إنها تعد أصدق مرآة للعصر الذي عاش فيه صاحبها، هذا فضلا عن أسلوب الرحلة الأدبي الممتاز الذي بلغ ذروة من ذري ما بلغه الرحلة في الأدب العربي، استرعت الرحلة اهتمام المستشرقين فترجموا القسم المختص بصقلية إلى الفرنسية وطبع عام ١٨٤٦م، ثم طبعت كلها عام ١٨٥٢م مع مقدمة بقلم المستشرق رايت، وأعيد طبعه عام ١٩٠٧م في لندن، وقامت برود هيرست بترجمته إلى الإنجليزية عام ١٩٥٢م[٥].

الفصل الأول: مكة المكرمة

اعتاد ابن حبير البدء بالوصف الجغرافي عند دخوله أو خروجه من المدن والقرى التي نزل فيها. ووصفه هذا أكثره مبني على المشاهدة المباشرة، وبعضه على ما سمعه من روايات أو أساطير مع حرصه على التفريق بين ما شاهده وما سمعه، وهذا ما نلاحظه في وصفه لمدينة مكة.

موقع الحرم ومداخله:

تقع مكة بين جبال عالية محدقة بها، وتشغل هذه المدينة الوادي الذي بين الجبال[٦]، وهي بطن واد مقدس كبير مستطيل، تسع من الخلائق ما لا يحصيه إلا الله عز وجل. ولها ثلاثة أبواب: أولها باب المعلى، ثم باب المسفل وهو إلى جهة الجنوب وعليه طريق اليمن، ومنه كان دخول خالد بن الوليد رضي الله عنه يوم الفتح؛ ثم باب الزاهر ويعرف أيضا باب العمرة وهو غربي، وعليه طريق مدينة الرسول وطريق الشام وطريق جدة ومنه يتوجه إلى التنعيم وهو أقرب ميقات المعتمرين، يخرج من الحرم إليه على باب العمرة؛ ولذلك أيضا يسمى هو بهذا الاسم، والتنعيم من البلدة على فرسخ، وهو طريق حسن فسيح فيه الآبار العذبة التي تسمى بالشبيكة[٧].

(١) زيادة، الجغرافية ١٦٠؛ أحمد، الرحلة ، ٣٣١.

(٢) ابن جبير، رحلة ، ص ، ٧١.

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٢٩.

(٤) زيادة، الجغرافية، ص٧١.

(٥) قنديل، أدب ٣٨٩، ٣٩١.

(٦) المصدر نفسه ١٢٢.

(٧) ابن جبير، رحلة ٩٠، ٩١.

وقد كان هذا السور مهدم أيام ابن جبير الذي شاهد آثاره الباقية، وأبوابه القائمة. وكان السور من ثلاث جهات فقط: المعلى وهو مدخل إلى البلد ومن جهة المسفل، وهو مدخل أيضاً إليه ومن جهة باب العمرة، وسائر الجوانب جبالا لا تحتاج معها إلى سور[١].

وكذلك أورد ابن جبير أسماء جبال مكة وتاريخها. وهي: جبل أبي قبيس، وجبل حراء، وجبل ثور، وجبل قعيقعان، وجبل عرفات ومنى والمزدلفة. وشبه ابن جبير منى بأنها مدينة كبيرة، لما حوته من آثار قديمة، لم يبق من معالمها سوى القليل من الدور المستخدمة في سكن الحجيج[٢]. والمزدلفة أرض منبسطة فسيحة تقع بين جبلين (منى وعرفات). وتمسى المشعر الحرام وتسمى جمعا فلها ثلاثة أسماء. وحولها مصانع وصهاريج كانت للماء في زمان زبيدة زوجة هارون الرشيد، وفي وسط ذلك البسيط من الأرض حلق في وسطه قبة في أعلاها مسجد يصعد إليه على أدراج من جهتين يزدحم الناس في الصعود إليه والصلاة فيه عند مبيتهم بها، وقبلها بنحو الميل وادي محسر وجرت العادة بالهرولة فيه، وهو حد بين مزدلفة ومنى، لأنه معترض بينهما[٣].

وصف عمارة الحرم:

أخذ وصف المسجد الحرام حيزاً كبيرا في كتب الرحلات يناسب مكانته ومنزلته في نفوس المسلمين. فقد اعتنى ابن جبير بوصفه عناية فائقة تجعل رحلته مصدراً مهما عن المسجد الحرام في القرن السادس الهجري. فقد فصل في الحديث عنه، ولم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا وتناولها.

يقع المسجد الحرام في وسط مكة. والمسجد ممتد طولا من الشرق إلى الغرب، وعرضا من الشمال إلى الجنوب. وسوره ليس قائم الزوايا، بل أركانه مقوسة، تميل إلى الاستدارة، وذلك حتى تكون وجوه جميع المصلين شطر الكعبة. وأقصى طول للمسجد من باب إبراهيم شرقا، إلى باب بني هاشم غربا، أربعمائة وأربع وعشرون ذراع، وأقصى اتساعه في العرض من باب الندوة شمالا، حتى باب الصفا جنوبا، ثلاثمائة وأربع أذرع. وبسبب استدارته، تبدو ساحة المسجد أضيق في جهة وأوسع في جهة أخرى. ونقل ابن جبير عن الفقيه أبي جعفر الفنكي القرطبي مساحة المسجد الحرام. فطوله أربعمائة ذراع وعرضه ثلاثمائة ذراع. وقارن ذلك مع مساحة مسجد الرسول ε في المدينة، والمسجد الأقصى. فطول مسجد الرسول ثلاثمائة ذراع، وعرضه مائتان، وعدد أعمدته ثلاثمائة، ومناراته ثلاث[٤]. أما طول المسجد الأقصى سبعمائة وثمانون ذراعاً، وعرضه أربعمائة وخمسون ذراعا، وأعمدته أربعمائة وأربع عشرة. وقناديله خمسمائة، وأبوابه خمسون[٥].

وحول المسجد الحرام ثلاثة أروقة، رفعت أسقفها على أعمدة من الرخام. ووسط هذه الأروقة مربع. وعلى طول السقف من ناحية ساحة المسجد خمسة وأربعون طاقا، وعلى عرضه ثلاثة وعشرون.

ويقول ابن جبير يحيط بالمسجد الحرام ثلاث بلاطات مسقوفة، وتحملها ثلاثة سوار عالية من الرخام منتظمة كأنها بلاط واحد، وما بين البلاطات فضاء كبير وكان على عهد رسول الله -ε - صغيرا وقبة زمزم خارجة عنه،[٦] وفي مقابلة الركن الشامي رأس سارية ثابتة في الأرض، منها كان حد الحرم أولاً. وبين رأس رأس السارية وبين الركن الشامي المذكور اثنتان وعشرون خطوة، والكعبة في وسطه على استواء من الجوانب الأربعة ما بين الشرق والجنوب والشمال والغرب،[٧] وكان للمسجد سواري رخامية وأخرى

(١) المصدر نفسه، ٩٢.

(٢) المصدر نفسه ١٢٠-١٢١.

(٣) ابن جبير، رحلة ٨٦.

(٤) المصدر نفسه ٨٦.

(٥) المصدر نفسه ٨٧.

(٦) المصدر نفسه ٨٦.

(٧) المصدر نفسه ،ص٧٧.

مصنوعة من الجص. وكانت قد زيدت في الحرم وهي داخلة في البلاط المتجه من الغرب إلى الشمال،[١] ويقابلها المقام مع الركن العراقي، وفضاؤها متسع يدخل من البلاط إليه، ويتصل بجدار هذا البلاط كله مصاطب. وفيها كان يجلس النساخون والمقرئون والخياطون. والحرم محدق بحلقات المدرسين وأهل العلم.[٢]

ويشير إلى دَوْر الخليفة العباسي المهدي في توسعة المسجد الحرام، والتأنق في بنائه، "وجدت في الجهة التي من الغرب إلى الشمال مكتوباً في أعلى جدار البلاط أمر عبد الله محمد المهدي أمير المؤمنين أصلحه الله بتوسعه المسجد الحرام لحاج بيت الله وعُمّاره في سنة سبع وستين ومائة". أما عن عدد أعمدة المسجد الرخامية فقد قال: " أن للمسجد أربعمائة وإحدى وسبعون سارية عدّها ابن جبير بنفسه"، وأعمدة أخرى مصنوعة من الجص لم يحصها بل نقلها عن الفنكي وعددها أربعمائة وثمانون، منها التي في دار الندوة [٣].

وللحرم سبع مآذن: أربع في الأربعة جوانب، وواحدة في دار الندوة، وأخرى على باب الصفا، مداخل الحرم وللحرم أبواب عديدة وهي: باب النبي، باب علي، باب بني هاشم باب الدقاقين باب الفسانين باب الصفا باب التمارين باب المعامل باب عروة باب إبراهيم باب الوسيط باب العجلة باب الندوة باب المشاورة باب بني شيبة [٤]. وهذه الأبواب موزعة على جوانب المسجد الأربعة على النحو التالي:

أبواب الجانب الشرقي (أربعة أبواب) هي: باب النبي وبه ثلاثة طيقان مقفلة. وعند الطرف الجنوبي للباب الأول، باب آخر يسمى باب النبي أيضاً، والمسافة بين البابين أكثر من مائة ذراع. ولهذا الباب طاقان. وفي خارجه سوق العطارين. وكان منزل النبي عليه الصلاة والسلام في هذه السوق. وكان يدخل من هذا الباب للصلاة في المسجد. أما الباب الثالث فهو باب علي، وكان يدخل منه أمير المؤمنين علي للصلاة بالمسجد، وله ثلاثة طيقان. وباب بني هاشم. وعتبة الطاق الأوسط مكونة من حجر أبيض كبير، وكان بها حجر أسود وطئه الرسول بقدمه، فارتسم نقش القدم المبارك عليه، وقد نزع هذا الجزء من الحجر الأسود وركب في الحجر الأبيض بحيث تكون أطراف أصابع القدم داخل المسجد، ويضع بعض الحجاج وجوههم على هذا الحجر وبعضهم يضعون أقدامهم تبركا، والأفضل أن يوضع الوجه. وبعد هذا الباب ناحية المغرب، باب السطوى وله طاقان. ثم من بعده بقليل باب التمارين وله طاقان. ثم باب المعامل وله طاقان (٥).

وصف الكعبة المشرفة:

بَيْدَ أن ابن جبير عدها قريبة من التربيع، وارتفاعها في الهواء، من الجانب الذي فيه الحجر الأسود والركن اليماني ـ الذي يقابل باب الصفا تسع وعشرون ذراعاً، ومن سائر الجوانب ثمان وعشرون، بسبب ميل السطح نحو الميزاب، والكعبة مبنية بالحجارة الكبار الصم السمر، قد رُصّ بعضها إلى بعض، وألصقت بالعقد الوثيق إلصاقا لا تحيله الأيام، ولا تفصمه الأزمان؛ ومن العجيب أن قطعة انصدعت من الركن اليمني، فسمرت بمسامير فضة، وأعيدت كأحسن ما كانت عليه، ومن آيات البيت العتيق أنه قائم وسط الحرم كالبرج المشيد[٦]، وللكعبة أربع أركان: أولها الركن الذي فيه الحجر الأسود، ويسمى ركنها الجنوبي الغربي ويسمى بالركن اليماني، وركنها الشمالي الغربي بالركن الشامي، وركنها الشمالي الشرقي بالركن العراقي. وركنها الجنوبي الشرقي بركن الحجر الأسود. ومن الأخير ابتداء الطواف، والبيت المكرم عن يساره. وأول ما يلقى بعده الركن العراقي وهو ناظر إلى جهة الشمال، ثم الركن الشامي، وهو ناظر إلى جهة الغرب، ثم الركن

(١) ويشير ابن جبير ، ص٧٧ إلى أنه وجد مكتوب على جصية بخط أبي جعفر الفلكي القرطبي الفقيه المحدث: إن عدد سواري المسجد أربع مئة وثمانون، لأنه لم يحسب التي خارج باب الصفا

(٢)ابن جبير، رحلة ، ٧٧.

(٣) ابن جبير، رحلة ،٧٧.

(٤) المصدر نفسه ٧٧.

(٥) المصدر نفسه، ٧٧.

(٦) المصدر نفسه، ص٧٧.

اليماني وهو ناظر إلى جهة الجنوب، ثم يعود إلى الركن الأسود، وهو ناظر إلى جهة الشرق، وعند ذلك يتم شوطاً واحدا[١]، ويقال إن القرمطي كسره، وقد شدت جوانبه بصفيحة فضة يلوح بصيص بياضها على بصيص سواد الحجر. فيبصر الرائي من ذلك منظراً عجيباً. وللحجر عند تقبيله لدونه ورطوبة يتنعم بها الفم حتى يود اللاثم ألا يقلع فمه عنه، وذلك من خواص العناية الإلهية.

وشاهد ابن جبير على باب الكعبة نقشاً بالذهب رائق الخط طويل الحروف غليظة. ترتمي الأبصار برونقه وحسنه، مكتوب فيه: "مما أمر بعمله عبد الله وخليفته الإمام أبو عبد الله محمد المقتفي لأمر الله أمير المؤمنين ... في سنة خمسين وخمسمائة". في صفحتي البابين على هذا النص المذكور[٢].كما قدم وصفا دقيقا عن كسوة الكعبة المصنوعة من الحرير الأخضر المبطن بالقطن. كتب في أعلاها رسم بالحرير الأحمر الآية الكريمة {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ. فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}[٣]. وقد كتب اسم الخليفة العباسي الناصر لدين الله في سعة مقدارها ثلاثة أذرع يحيط بها. وجميع كسوة الكعبة الخارجية بديعة الصنع والنقش، متنوعة الأشكال وعدد ستائر الكعبة من الجوانب الأربعة أربعة وثلاثون سترا. منها في الجانبين الكبيرين من الكعبة ثمانية عشر. وفي الجهتين الصغيرين ستة عشر [٤]، ويوجد بداخل الكعبة خمسة أماكن للإضاءة، وعليها زجاج عراقي بديع النقش، أحدها في وسط السقف ومع كل ركن مضوا، والواحد منها لا يظهر لأنه تحت القبو المذكور بعد. وبين الأعمدة كؤوس من الفضة عددها ثلاثة عشر، وأحدها من ذهب [٥].

وبين مكان موضع منبر الخطيب بالمسجد الحرام إلى جانب المقام. وهو منبر واحد متحرك على أربع بكرات ليسهل تحريكه من مكان إلى آخر. فإذا حان موعد الخطبة، نقل إلى موضع بقرب جدار الكعبة مقابل المقام، بين الركن الأسود والعراقي، فيسند المنبر إليه [٦].

وتحت الميزاب في صحن الحجر بمقربة من جدار الكعبة قبر إسماعيل -عليه الصلاة السلام-. وعلامته رخامة خضراء مستطيلة قليلا شكل محراب، تتصل بها رخامة خضراء مستديرة. وكلتاهما غريبة المنظر فيهما نكت تنفتح عن لونها إلى الصفرة. وإلى جانبه مما يلي الركن العراقي قبر أمه هاجر -رضي الله عنها- وعلامته رخامة خضراء، يتبرك الناس بالصلاة في هذين الموضعين من الحجر وحق لهم ذلك لأنهما من الكعبة. وبين القبرين المقدسين سبعة أشبار [٧].

ويبدو أن ابن جبير أخطأ فيما يتعلق بمكان قبري إسماعيل وأمه هاجر. فالصحيح أن قريشا لم تتم بناء الكعبة على قواعد إبراهيم. فقاموا بتقصير ستة أو سبعة أذرع منها. وعندما أعاد بناءها عبد الله بن الزبير ردها إلى ما كانت عليه أيام إبراهيم. وبعدها قام الحجاج بهدم الجزء الذي أضافه عبد الله بن الزبير. وعليه فإن ما أورده ابن جبير عن مكان دفن إسماعيل وأمه غير صحيح؛ حيث لم يرد أن أحدا من البشر دفن في داخل الكعبة. ولكن يبدو أن مكان دفنهما بعد حدود الكعبة. وإن مكان القبرين في نصف الحجر، فالحجر كان أصغر مما هو عليه أيام إسماعيل إلى أن قامت قريش ببناء البيت.[٨]

(١) المصدر نفسه، ص٧٢.

(٢)المصدر نفسه، ص٧٨.

(٣) سورة آل عمران، آية ٩٦-٩٧.

(٤) ابن جبير ،الرحلة، ص٧٨،٧٢.

(٥) المصدر نفسه، ص٧٢.

(٦) المصدر نفسه، ص٨٠.

(٧) المصدر نفسه، ص٨٠.

(٨) عواطف نواب، ص٣٥٢.

حفظ ابن جبير نقشاً في جدار الحجر يشير إلى تاريخ عمارته، وتجديده زمن الخليفة العباسي الناصر ونصه "أمر بصنعتهما على هذه الصفة إمام المشرق أبو العباس أحمد الناصر بن المستضيء بالله أبى محمد الحسن بن المستنجد بالله أبى المظفر يوسف العباسي -رضي الله عنه-". (١)

وصف مكان السعي:

للصفا أربع عشر درجة عليها ثلاثة أقواس. والدرجة العليا متسعة كأنها مصطبة. وقد أحدقت به الدور. والمسافة بين الصفا والميل الأخضر ثلاث وتسعون خطوة. والميلان الأخضران عبارة عن ساريتين بلون أخضر إحداهما بجانب باب علي في جدار الحرم، وعن يسار الخارج من الباب. والميل الآخر في الجهة المقابلة في جدار دار تتصل بدار الأمير مكثر. وعلى كل واحدة منهما لوح قد وضع على رأس السارية كالتاج منقوشا بالذهب كتب عليه: "إن الصفا والمروة من شعائر الله"(٢)، وبعدها أمر بعمارة هذا الميل عبد الله وخليفته أبو محمد المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين أعز الله نصره في سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة،(٣) وبين الصفا والميل الأول ثلاث وتسعون خطوة، ومن الميل إلى الميلين خمس وسبعون خطوة. وهي المسافة التي يرمل فيها الساعي وقت السعي من الميل إلى الميلين. ثم من الميلين إلى الميل ومن الميلين إلى المروة ثلاثمائة وخمس وعشرون خطوة. فجميع خطا الساعي من الصفا إلى المروة أربعمائة وثلاث وتسعون خطوة، وأدراج المروة خمسة، وهي بقوس واحد كبير، وسعتها سعة الصفا سبع عشرة خطوة. وبين الصفا والمروة سوق تجاري.(٤)

وقد رأى ابن جبير نقشاً مكتوباً في سارية خارج باب الصفا المقابل للساريتين اللتين جعلتا علما على طريق النبي إلى الصفا داخل الحرم نصه: "أمر عبد الله محمد المهدي أمير المؤمنين، أصلحه الله تعالى، بإقامة هاتين الأسطوانتين علما لطريق رسول الله ε إلى الصفا ليتأسى به حجاج بيت الله وعماره، على يدي يقطين بن موسى وإبراهيم بن صالح، في سنة سبع وستين ومائة".(٥)

مقام إبراهيم وحجر إسماعيل:

أقيم له قبو متصل بأعلى سطح البيت، داخله الأدراج وفي أوله البيت المحتوى على المقام الكريم، وأكثر هذا القبو مكسو بثوب من الحرير الملون، وهذا المقام الذي داخل هذا القبو هو مقام إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- وهو حجر مغشى بالفضة وارتفاعه ثلاثة أشبار، وسعته شبران وأعلاه أوسع من أسفله(٦)، وموضع المقام الكريم هو الذي يصلى خلفه، يقابل ما بين الباب الكريم والركن العراقي، وعليه قبة خشب في مقدار القامة أو أزيد مركنة محددة بديعة النقش، وقد نصبت على الموضع الذي كان فيه المقام، وحوله إطار من حجارة على حرف كالحوض المستطيل، ولموضع المقام أيضا قبة من الحديد موضوعة إلى جانب قبة زمزم، وفي أيام الازدحام تستبدل قبة الخشب بالحديد لأنها أكثر تحملاً للازدحام(٧)، ومن الركن الذي فيه الحجر الأسود إلى الركن العراقي أربعة وخمسون شبراً، ومن الحجر الأسود إلى الأرض ستة أشبار، ومن الركن الأسود إلى الركن العراقي أربعون خطوة إلى الركن الشامي ثمانية وأربعون شبرا محققة، وذلك داخل الحجر. أما من الخارج، فمنه إليه أربعون خطوة، وهي مائة وعشرون شبرا محققة، ومن خارجة يكون الطواف، وموضع الطواف مفروش بحجارة مبسوطة، كأنها الرخام حسنا. منها سود وسمر وبيض قد ألصق

(١) ابن جبير، الرحلة، ص٧٥.

(٢) سورة البقرة، أية ١٥٨.

(٣) ابن الخطيب، الإحاطة ١٨٨.

(٤) المصدر نفسه ، ص١٨٨.

(٥) ابن جبير، الرحلة، ص٧٨.

(٦) المصدر نفسه، ص٧٣.

(٧) المصدر نفسه، ص٧٤.

بعضها إلى بعض. وسائر الحرم مع البلاطات كلها مفروش برمل أبيض. وطواف النساء في آخر الحجارة المفروشة،[١] ودور الجدار رخام كله مجزع بديع الإلصاق، وفيه قضبان صفر مذهبة، وضع منها في صفحه أشكال شطرنجية متداخلة بعضها ببعض، وهيئات محاريب، فإذا ضربت الشمس فيها لاح لها بصيص ولآلاء يخيل للناظر أنها ذهب يرتمي بالأبصار شعاعه.

يسهب ابن جبير في وصف جمال الزخرفة ودقة الصنعة في الحجر، وداخل الحجر بلاط واسع ينعطف عليه الحجر كأنه ثلثا دائرة، وهو مفروش بالرخام المجزع المقطع، ثم الصق بدقة وإتقان رائع الترصيع والتركيب والرصف، وهناك رخامتان متصلتان بجدار الحجر المقابل للميزاب تفنن الصانع فيهما منقوش عليهما، "أمر بصنعتهما على هذه الصفة إمام المشرق أبو العباس أحمد الناصر بن المستضيء بالله أبى محمد الحسن بن المستنجد بالله أبى المظفر يوسف العباسي رضي الله عنه"، وخص ابن جبير الرخامة المقابلة للميزاب في وسط الحجر "ويقابل الميزاب في وسط الحجر وفي نصف جداره الرخامي رخامة قد نقشت أبدع نقش، وحفت بها طُرّة منقوشة نقشاً مكحلاً فيه مكتوب: "مما أمر بعمله عبد الله وخليفته أبو العباس أحمد الناصر لدين الله أمير المؤمنين وذلك في سنة ست وسبعين وخمسمائة"،[٢] أي إن وضع هذه الرخامة في هذا المكان، حدث قبل ابتداء ابن جبير لرحلته الأولى إلى المشرق للحج بعامين فقط.[٣]

ماء زمزم:

وقبة بئر زمزم تقابل الركن الأسود. وتنور (فم) البئر في وسطه القبة. وعمقها إحدى عشرة قامة حسبما ذرعها ابن جبير، وعمق الماء سبع قامات على ما ذكر له، ويقع باب القبة جهة الشرق. وباب قبة بئر زمزم من ورائها قبة الشراب، وهي المنسوبة للعباس رضي الله عنه، والقبة العباسية كانت سقاية الحاج وهي حتى الآن يبرد فيه ماء زمزم ويخرج مع الليل لسقي الحاج في قلال، وتنور (فم) بئر زمزم مبني من رخام مصبوب بين الرخام رصاص من خارج التنور وداخله، وحول التنور أعمدة الرصاص عددها اثنان وثلاثون عموداً، ولهذه الأعمدة رؤوس ملصقة بحافة البئر كله، وقد استدارت بداخل القبة سقاية سعتها شبر، وعمقها نحو شبرين، وارتفاعها عن الأرض خمسة أشبار، تملأ ماء للوضوء، وحولها مسطبة دائرة يرتفع الناس إليها ويتوضؤون عليها.[٤]

منى وعرفات:

أبدى ابن جبير سروره برؤية مدينة منى عن كثب، ووصفها بأنها: "مدينة عظيمة الآثار، واسعة الاختطاط...". وشاهد من مقرة في منى مسجد البيعة المباركة، أول بيعة في الإسلام. وجمرة العقبة، ورمي الجمار والحلق والنحر، ثم ذهب إلى جبل ثور ليشاهد الغار الذي أوى إليه النبي مع صاحبه الصديق وقد وصف الجبل بأنه: "صعب المرتقى جدا، يقطع الأنفاس تقطيعا"، وقاس طول الغار فإذا هو ثمانية عشر شبرا، وسعته بالوسط أحد عشر شبرا، وفرح ابن جبير بعد أن صعد على عرفات الأمر الذي كان أمنية أمانيه، وقد وصف ابن جبير كل ما شاهده، أو سمع به أو علمه، ومنها المزدلفة بين منى وعرفات ـ والمشعر الحرام.[٥]

تابع ابن جبير وصفه لمشاعر الحج، فقد أشار إلى النفرة، عشية الوقفة بعرفات، ووصول الحجاج إلى المزدلفة. واتقاد المشعر الحرام تلك الليلة بمشاعل من الشمع، وعاد مسجده كله نورا.

(١) المصدر نفسه، ص٧٥.

(٢) ابن جبير، رحلة، ص٧٥.

(٣) الأنصاري، مع ابن جبير، الرحلة، ص ١٧٥.

(٤) ابن جبير، الرحلة، ص٧٦.

(٥)المصدر نفسه، ص١٢٤.

المساجد في مكة:

وبجهة المسفل، وهو آخر البلد، مسجد منسوب لأبي بكر الصديق -رضي الله عنه- يحف به بستان حسن، فيه النخيل والرمان والعناب وشجر الحناء[١]، ومسجد فوق جبل أبي قبيس، ذكر ابن جبير إنه مشرف على مكة، وإن موضعه هو موضع موقف النبي عند انشقاق القمر[٢]، ومسجد الجن يقع على يمين المستقبل لمقبرة الحجون في وادٍ بين جبلين[٣]، مسجد على طريق التنعيم يقع على بعد ميل من مكة بجانبه حجر موضوع على الطريق كالمصطبة فوقه حجر آخر مسند فيه نقش داثر الرسم، يقال إنه الموضع الذي قعد فيه النبي -ع - مستريحا عند مجيئه من العمرة.[٤]

مسجد إبراهيم يقع بوادي ذي طوى الذي ذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم نزل فيه عند دخول مكة، مساجد التنعيم عدة مساجد مبنية بالحجارة يصلى المعتمرون فيها ويحرمون منها، تقع عند ميقات المعتمرين، منها مسجد عائشة -رضي الله عنها- وأمام مسجد عائشة مسجد ينسب لعلي بن أبى طالب -رضي الله عنه-[٥].

مسجد الدار التي ولد بها الرسول، مسجد حفيل البنيان: رائع الصنعة، أكثره مُذهّب، بني في مكان مولد النبي -صلى الله عليه وسلم-[٦]، يقع شرق الكعبة، وعلى مقربة منه أيضا مسجد مكتوب عليه: "هذا المسجد هو مولد علي بن أبى طالب رضوان الله عليه، وفيه تربى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وكان دارا لأبى طالب عم النبي -صلى الله عليه وسلم- وكافله"[٧]. مسجد البيعة شاهد ابن جبير مسجد البيعة المباركة، أول بيعة في الإسلام، من مقرة في منى، وهذا المسجد يفضي إلى جمرة العقبة، وهي علم منصوب مماثل لأعلام الحرم[٨]، الحرم[٨]، مسجد منحر الذبيح يقع بمنى بعد الجمرة الأولى بالقرب من سفح جبل ثبير، وهو مسجد منحر الذبيح الذبيح -عليه الصلاة السلام-، وفي موضع المنحر حجر قد الصق بجدار المسجد، فيه أثر قدم صغيرة يقال إنه أثر قدم الذبيح عند تحركه فلان الحجر له بقدرة الله عز وجل، فيتبرك الناس بلمسه وتقبيله، مسجد الخيف يقع في آخر منى، ثم تليه آثار قديمة ممتدة لمسافة بعيدة، وهذا المسجد كبير واسع الساحة، ومئذنته في وسط الرحبة، وفي قبلته أربعة بلاطات مسقوفة، وهو من المساجد الشهيرة [٩].

وبمقربة منه عن يمين المار في الطريق حجر كبير مسند إلى صفح الجبل مرتفع عن الأرض يظل ما تحته، ذكر أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قعد تحته مستظلا، ومس رأسه المكرم فيه، فلان له حتى أثر فيه تأثيرا بقدر دور الرأس، فيبادر الناس لوضع رؤوسهم في ذلك الموضع تبركا واستجارة لها بموضع مسه الرأس المكرم ألا تمسها النار بقدرة الله عز وجل [١٠]. مسجد المزدلفة يقع في وسط المزدلفة وعليه قبة، والمسجد مرتفع عن الأرض، بدليل صعود الحجيج إليه من جهتين بهما درج، يزدحم الناس بالصعود عليه، والصلاة فيه[١١]. مسجد إبراهيم يقع بالقرب من علمي حد عرفة عن يسار المستقبل للقبلة، وهو مسجد قديم

(١) ابن جبير، رحلة، ص٩٤.

(٢) المصدر نفسه، ص٨٩.

(٣) المصدر نفسه، ص٩٠.

(٤) المصدر نفسه، ص٩١.

(٥) المصدر نفسه، ص٩١.

(٦) المصدر نفسه، ص٩٤.

(٧) المصدر نفسه، ص١٢٣.

(٨) المصدر نفسه، ص١٢٠-١٢١.

(٩)المصدر نفسه، ص١٢١.

(١٠)المصدر نفسه، ص١٢١.

(١١)المصدر نفسه، ص١٢٩.

فسيح البناء، بقي منه الجدار القبلي، وينسب هذا المسجد إلى إبراهيم -عليه السلام-. وفيه يخطب الخطيب يوم الوقفة، ويصلي جامعاً بين الظهر والعصر[١].

العمارة في مكة:

مكة شرفها الله كلها مشهد كريم، كفاها شرفا ما خصها الله به من مكان بيته العظيم، وما سبق لها من دعوة الخليل إبراهيم، وأنها حرم الله وأمنه، وكفاها أنها منشأ النبي -صلى الله عليه وسلم- الذي آثره الله بالتشريف والتكريم. وابتعثه بالآيات والذكر الحكيم، فهي مبدأ نزول الوحي والتنزيل، وأول مهبط الروح الأمين جبريل، وكانت مكان أنبياء الله ورسله الأكرمين، وهي أيضا مسقط رءوس جماعة من الصحابة القرشيين المهاجرين الذين جعلهم الله مصابيح الدين ونجوما للمهتدين.[٢]

١- الدور في مكة

ذكر بعض المشاهد المعروفة في مكة مثل: دار خديجة أم المؤمنين -رضي الله عنها-، وفيها قبة الوحي، وبهذه الدار كان زواج النبي بالسيدة خديجة، ووجد بها قبة صغيرة أخرى، كانت علامة على مولد فاطمة الزهراء -رضي الله عنها-، وفيها ولدت الحسن والحسين -رضي الله عنهما-[٣]. والجدير بالذكر أن ابن ابن جبير وقع في الخطأ؛ لأن مولد الحسن والحسن كان في المدينة المنورة[٤].

زار ابن جبير دار السيدة خديجة في يوم الاثنين الثالث عشر من ذي القعدة، ووجد فيها قبة الوحي، وفيها أيضا مولد فاطمة -رضي الله عنها- وهو بيت صغير مائل للطول والمولد شبه صهريج صغير، في وسطه حجر أسود. ومولد ابنيها لاصق بالجدار، وفي الدار أيضا مختبئ النبي شبيه القبة، وفيه مقعد في الأرض عميق شبيه الحفرة داخل في الجدار قليلا، وقد خرج عليه من الجدار حجر مبسوط[٥]، وهذه المواضع المواضع المقدسة المذكورة مغلقة مصونة قد بنيت بناء يليق بمثلها.

ومن مشاهد مكة الكريمة أيضاً مولد النبي -صلى الله عليه وسلم-، والتربة الطاهرة التي مست جسمه الطاهر. بني عليه مسجد رائع الصنعة، أكثره ذهب منزل به، يفتح هذا الموضع المبارك فيدخله الناس كافة متبركين به في شهر ربيع الأول -شهر مولد النبي-، وتفتح المواضع المقدسة المذكورة كلها، وهو يوم مشهور بمكة دائما[٦]، دخل ابن جبير في يوم الاثنين الثالث عشر من ذي القعدة، مولد النبي -صلى الله عليه وسلم- فوجده مسجد حفيل البنيان، وكان دارا لعبد الله بن عبد المطلب، أبي النبي. ومولده -صلى الله عليه وسلم- صفة صهريج صغير سعته ثلاثة أشبار، وفي وسطه رخامة خضراء سعتها ثلثا شبر مطوقة بالفضة، فتكون سعتها مع الفضة المتصلة بها شبرا، وهذا الموضع المبارك هو شرقي الكعبة، وعلى مقربة منه أيضا مسجد مكتوب عليه: "هذا المسجد هو مولد علي بن أبى طالب رضوان الله عليه وفيه تربى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وكان دارا لأبى طالب عم النبي -صلى الله عليه وسلم- وكافله" [٧].

وبجهة المسفل، وهو آخر البلد، مسجد منسوب لأبي بكر الصديق -رضي الله عنه- يحف به بستان حسن، فيه النخيل والرمان والعناب وشجر الحناء [٨]، ومن مشاهدها: دار أبى بكر الصديق -رضي الله عنه- وهي اليوم دارسة الأثر، وثَمّ هناك قبة بين الصفا والمروة تنسب لعمر بن الخطاب -رضي الله عنه-، وفي

(١) ابن جبير، ص١٣٠.

(٢) المصدر نفسه، ص٩٢.

(٣) المصدر نفسه، ص٩٣.

(٤) ابن الأثير، ص٤٩٦.

(٥) ابن جبير، الرحلة ١٢٣.

(٦) المصدر نفسه، ص٩٤.

(٧) ابن جبير، رحلة، ص١٢٣.

(٨) ابن جبير، رحلة، ص٩٤.

وسطها بئر، ويقال إنه كان يجلس في هذه القبة للحكم، والصحيح إنها قبة سبطه عمر بن عبد العزيز، وهي بجانب داره، وفيها كان يجلس للحكم أيام إمارته على مكة، وفيها بئر قديمة لم يشاهده ابن جبير [١].

ومن دور مكة، دار الخيزران. وكان النبي يتعبد فيها سراً هو ومن أسلم من أصحابه[٢]. دخلها ابن جبير جبير في يوم الأربعاء ٢٩ ذي القعدة، وقد عدها منشأ الإسلام، تقع بجانب الصفا، يلاصقها بيت صغير، كان مسكن بلال، وعن يمين الداخل لهذه الدار باب يدخل إلى قبة كبيرة بديعة البناء، فيها مقعد النبي والصخرة التي كان إليها مسنده، وعن يمين المقعد موضع أبي بكر الصديق، وعن يمين أبي بكر موضع علي بن أبي طالب، وفي هذه الدار كان إسلام عمر بن الخطاب، ومنها ظهر الإسلام على يديه [٣]. وكانت هذه الدار للأرقم للأرقم بن أبي الأرقم، ثم صارت ملكا للخيزران من قبل المهدي، وكانت لأبيه المنصور الذي قام بشرائها من أولاد الأرقم[٤].

- المقابر في مكة:

تقع الجبانة في موضع يعرف بالحجون، وفيها مدفن جماعة من الصحابة، والتابعين، والأولياء، والصالحين قد دثرت مشاهدهم المباركة، وذهبت عن أهل البلد أسماؤهم، وفيه الموضع الذي صلب فيه الحجاج بن يوسف عبد الله بن الزبير [٥].

- أسواق مكة:

تعددت أسواق مكة التجارية وتنوعت مبيعاتها وأوقاتها، قال عنه ابن جبير بأنه: "سوق حفيله بجميع الفواكه وغيرها من الحبوب وسائر المبيعات الطعامية، والساعون لا يكادون يخلصون من كثرة الزحام، وحوانيت الباعة يميناً وشمالا"، وتحت هذا السوق يوجد سوق للبزازين (تجار الثياب والأسلة) وآخر للعطارين؛ عند باب بني شيبة [٦]. وفي منى سوق طيلة أيام عيد الأضحى تباع فيه مختلف السلع من الجواهر النفيسة إلى الأمتعة الرخيصة والخرز. [٧]

كشف ابن جبر عن استنكاره البالغ إقامة سوق بالمسجد الحرام إبان موسم الحج، حيث يصبح المسجد كله سوقا عظيمة، يباع فيها من الدقيق إلى العقيق، ومن البر إلى الدر، إلى غير ذلك من السلع المعروفة، وقد كان الدقيق يباع بدار الندوة إلى جهة باب بني شيبة، وقد سيطرت الفوضى والشراهة وعدم الضرب على أيدي هؤلاء التجار الفجار الذين حولوا المسجد الحرام المقدس إلى سوق رائجة تعرض فيها البضائع، ويشتد اللدد والخصام فيها بين البائعين والمشترين؛ ولذلك أخرجوا حرم الله من القدسية والعبادة إلى ممارسة التجارة والبيع، وقد علق ابن جبير على هذا الوضع الشاذ الشائن بقوله: "وفي ذلك من النهي الشرعي ما هو معلوم، والله غالب على أمره"[٨].

- أسواق الفاكهة:

تغص مكة بالفواكه كالتين والعنب والرمان والسفرجل والخوخ والأترج والجوز والمقل (الدوم) والبطيخ والقثاء والخيار والباذنجان واليقطين والسلجم (اللفت) والجزر. وأكثر هذه البقول كالباذنجان والقثاء

(١) المصدر نفسه، ص٩٣.

(٢) المصدر نفسه، الرحلة، ص٩٣.

(٣) المصدر نفسه، الرحلة، ص١٢٦.

(٤) التجيبي، مستفاد الرحلة، ص٢٣٦.

(٥) ابن جبير، الرحلة، ص٩٠.

(٦) المصدر نفسه، ص٨٨.

(٧) المصدر نفسه، ص١٣٣.

(٨) ابن جبير رحلة، ص١٣٥.

والبطيخ، لا يكاد ينقطع طول العام[١]. وقد استرعى انتباه ابن جبير رائحة البطيخ الحجازي في مكة. إذ يقول: "ومن أعجب ما اختبرناه من فواكهها البطيخ والسفرجل وكل فواكهها عجب، لكن للبطيخ فيها خاصة من الفضل عجيبة، وذلك لأن رائحته من أعطر الروائح وأطيبها، يدخل به الداخل عليك فتجد رائحته العبقة قد سبقت إليك"، فيكاد يشغلك الاستمتاع بطيب رؤيته عن أكله، حتى إذا ذقته خيل إليك أنه محلى بالسكر أو العسل. ولعل القارئ يظن أن في الوصف غلو، بل إنه لأكثر مما وصفت.

ويستغرب ابن جبير الرطب، لأنه لم يعرفه في بلده، وهو عندهم يشبه التين الأخضر في شجره، يجنى ويؤكل. استمتع بأكله، ووجده في نهاية الطيب واللذة، لا يسأم التفكه به، يخرج الناس إليه كخروجهم إلى الضيعة، وعند تناهى نضجه يبسط على الأرض، ثم يركم بعضه على بعض في السلال والظروف ويرفع.[٢]

وبعض هذه الفواكه تجلب إلى مكة من الطائف ومن قرى حولها، وأقرب هذه المواضع يعرف بأدم هو من مكة على مسيرة يوم.[٣]

- أسواق اللحوم الضأن:

ومما أعجب به ابن جبير بمكة لحوم الضأن، فيقول: "وأما لحوم ضأنها فهناك العجب العجيب... أنها أطيب لحم يؤكل في الدنيا. وما ذاك والله أعلم إلا لبركة مراعيها...فتجده هنيئا رخصا يذوب في الفم قبل أن يلاك مضغا ويسرع لخفته عن المعدة انهداما، وما أرى ذلك إلا من الخواص الغريبة، وبركة البلد الأمين قد تكفلت بطيبه وفي مكة عسل طيب المذاق، مضروب به المثل، يعرف بالمسعودي. وفيها أنواع عديدة من اللبن في غاية الطيب، والسمن لا يميز من العسل طيبا ولذة.[٤]

- أسواق الحلوى:

كانت صناعة الحلوى رائجة في مكة عندما حج ابن جبير حيث يقول: وأما الحلوى فيصنع منها أنواع غريبة من العسل والسكر المعقود على صفات شتى، وإنهم يعملون حلوى على هيئة التين والعنب والرمان وغيرها من الفاكهة. وفي الأشهر الثلاثة: رجب وشعبان ورمضان، يتصل منها أسمطه بين الصفا والمروة. "ولم يشاهد أحد أكمل منظرا منها لا بمصر ولا بسواها. قد صورت منها تصاوير إنسانية وفاكهية، وجليت في منصات كأنها العرائس، ونضدت بسائر أنواعها المنضدة الملونة، فتلوح كأنها الأزاهر حسنا، فتقيد الأبصار وتستنزل الدرهم والدينار".[٥]

قدَّم ابن جبير صورة حية واضحة عن مظاهر عيد الفطر استقبالا واحتفالا بمكة المكرمة، ووصف مظاهر العيد من صلاة وخطبة ومراسم، فبعد صلاة الفجر لبس الناس أثواب عيدهم، وبادروا أخذ مصافهم لصلاة العيد بالمسجد، لكنه لم يصف ملابس الناس في ذلك العيد، فقد اكتفى بالإجمال المقتضب عن البيان المسهب في هذا الشأن، فما هي هذه الأثواب وما أشكالها؟ وما ألوانها؟ وما تفصيلها؟ أسئلة تظل بدون إجابة.

ثم تحدث حديثا فضفاضاً عن تحركات الأمير مكثر في العيد وتحركاته وحاشيته. فقد بكر الشيبيون وفتحوا باب الكعبة، واستقبلوا الأمير مكثر، فانتهى إلى البيت وطاف حوله، والناس قد اختلفوا لعيدهم، والحرم قد غص بهم، والمؤذن الزمزمي فوق سطح القبة على العادة رافعا صوته بالثناء عليه والدعاء له. فلما أكمل الأمير طوافه جلس في مصطبة قبة زمزم وأبناؤه عن يمينه، ووزيره وحاشيته عن يساره. وقام الشعراء المرافقون للأمير بالإنشاد لحين وقت الصلاة، وبعد ذلك يقبل القاضي الخطيب يتهادى بين رايتيه السوداوين والفرقعة أمامه. ثم يقيم الصلاة، وعقب الانتهاء منها يتوجه إلى المنبر الموضوع إلى جدار الكعبة فيلقي خطبة

(١) المصدر نفسه، ص٩٦.

(٢) المصدر نفسه، ص٩٨.

(٣) المصدر نفسه، ص٩٧.

(٤) المصدر نفسه، ص٩٧.

(٥) المصدر نفسه، ص٩٧.

العيد، وبعد انتهاء الخطبة، "أقبل الناس بعضهم على بعض بالمصافحة والتسليم، والتغافر والدعاء مسرورين جذلين فرحين بما آتاهم الله من فضله وبادروا إلى البيت الكريم فدخلوا بسلام آمنين".[١]

الفصل الثاني (مدينة دمشق):

بدأ ابن جبير بوصف بديع وجميل للمدينة وصفا حيث قال: (جنة المشرق ، ومطلع حسنه المؤنق المشرق وهي خاتمة بلاد الاسلام التي استقريناها، وعروس المدن التي اجتليناها، قد تحلت بأزاهير الرياحين، وتجلت في حلل سندسية من البساتين، وحلت من موضوع الحسن بالمكان المكين، وتزينت في منصتها أجمل تزيين، وتشرفت بأن آوى الله تعالى المسيح وأمه، صلى الله عليهما ، منها إلى ربوة ذات قرار ومعين، ظل ظليل، وماء سلسبيل، تنساب مذانبه انسياب الأراقم بكل سبيل، ورياض يحيي النفوس نسيمها العليل، تتبرج لناظريها بمجتلى صقيل، وتناديهم : هلموا إلى: اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب؛ قد أحدقت البساتين بها إحداق الهالة بالقمر، واكتنفتها اكتناف الكمامة للزهر، وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر، فكل موضع لحظته بجهاتها الأربع نضرته اليانعة قيد النظر، ولله صدق القائلين عنها: إن كانت الجنة في الأرض فدمشق لا شك فيها، وإن كانت في السماء فهي بحيث تسامتها وتحاذيها).

ويتفق وصف ابن جبير لمدينة دمشق بمصدر آخر معاصر لرحلته في القرن السادس الهجري بأنها جنة الأرض؛ وعلل ذلك لكثرة فاكهتها ومياهها التي تجري في القنوات الكثيرة، فقد كانت قنوات المياه تخرج من جدران المدينة بأنابيب يشرب منها الناس، وقال ياقوت الحموي: (وما تجد بها مسجدا ولا مدرسة إلا والماء يجري على بركة صحن هذا المكان)[٢] ومن الجدير ذكره أن غوطة دمشق تعتمد على مياه الأنهار الكثيرة وأهمها بردى إضافة إلى أنهار فرعية أخرى منها نهر أباناس، ونهر القنوات وهذه المياه الجارية نعمة حباها الله مدينة دمشق، وجعلها أجمل مدن الشرق حيث بلغ عدد قنواتها في العهد الأيوبي والمملوكي حوالي مئة وأربع وخمسين [٣].

ولهذه البلدة ثمانية أبواب، باب شرقي، وهو شرقي وفيه منارة بيضاء يقال: إنّ عيسى، عليه السلام، ينزل فيها، لما جاء في الأثر أنه ينزل بالمنارة البيضاء شرقيّ دمشق، ويلي هذا الباب باب توما، وهو أيضا في حيّز الشرق؛ ثم باب السلامة، ثم باب الفراديس، وهو شمالي؛ ثم باب الفرج، ثم باب النصر، وهو غربي؛ ثم باب الجابية كذلك؛ ثم باب الصغير، وهو بين الغرب والقبلة[٤]، وقد اختلفت بعض المصادر المعاصرة لابن جبير في عدد أبواب المدينة فهناك من ذكر أن للمدينة خمسة أبواب فقط هي: (باب الجابية وباب توما وباب السلامة وباب الفراديس والباب الصغير).[٥]

وصف الجامع الأموي:[٦]

هو من أشهر جوامع الإسلام حسنا، واتقان بناء، وغرابة صنعة، واحتفال تنميق وتزيين. وشهرته المتعارفة في ذلك تغني عن استغراق الوصف فيه، ومن عجيب شأنه أنه لا تنسج به العنكبوت ولا تدخله، ولا تلم به الطير المعروفة بالخطاف، انتدب لبنائه الوليد بن عبد الملك، رحمه الله، ووجه إلى ملك الروم بالقسطنطينية يأمره بأشخاص اثني عشر ألفا من الصناع من بلاده، وتقدم اليه بالوعيد في ذلك أن توقف عنه، فأمتثل أمره مذعنا بعد مراسلة جرت بينهما في ذلك مما هو مذكور في كتب التاريخ، فشرع في بنائه، وبلغت

(١) ابن جبير، رحلة، ص١١٩.

(٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار احياء التراث العربي، بيروت١٩٧٩،ج٢، ص٤٦٣،سيشار إليه تاليا : الحموي ،معجم.

(٣) يوسف غوانمة، دمشق والناس في عهد المماليك، إربد ،٢٠١٧، ص٢٠، وسيشار إليه تاليا :غوانمة ،دمشق.

(٤) المصدر نفسه، الرحلة، ص٢١٠.

(٥) الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ص٣٦٨.

(٦) عن المسجد الأموي ينظر علي الطنطاوي، الجامع الأموي، دمشق،١٩٦٠ ص١٣-١٤،سيشار إليه تاليا: الطنطاوي ، الجامع ، عبد الله كامل، الأمويين وآثارهم المعمارية في الشام والعراق ومصر وإفريقيا، دار الآفاق العربية، بيروت.

الغايات في التأنق فيه، وأنزلت جدره كلها بفصوص من الذهب المعروف بالفسيفساء، وخلطت بها أنواع من الأصبغة الغريبة، ..... وكان مبلغ النفقة فيه ...في ذكر بنائه، مئة صندوق، في كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار ومئتا ألف دينار، فكان مبلغ الجميع أحد عشر ألف ألف دينار ومئتي ألف دينار..... [١]. وقد ذكر ذكر ابن بطوطة أن الوليد بدأ بناءه سنة ٨٦هـ على أنقاض كنيس روماني واستخدم في البناء حجارة ذلك الكنيس، وقال: إن تكلفة البناء هو خراج الدولة الأموية لمدة سنتين، وقدّر ما أنفق في البناء من أموال بأربعمئة صندوق في كل واحد أربعة عشر ألف دينار أي ما يعادل أكثر من خمسة ملايين ونصف المليون دينار ذهبي،[٢] وقد تمتع المسجد بجمال يسلب الأبصار؛ كما وصفه ابن جبير، وقد ذكرت دراسة حديثة أن رجلا روميا وقع مغشيا عليه لما رأى عظمة المسجد، ولما سئل عن السبب قال: (إننا معشر أهل رومية نتحدث أن بقاء العرب قليل، فلما رأيت ما بنوا علمت أن لهم مدة سيبقونها؛ فلذلك أصابني ما أصابني)[٣].

مساحته وعدد أبوابه:

ذكر ابن جبير أبعاد المسجد ومساحته بالتفصيل الدقيق بالقول: (ذرعه في الطول من الشرق إلى الغرب مئتا خطوة، وهما ثلاثمئة ذراع، وذرعه في السعة من القبلة إلى الجوف مئة خطوة وخمس وثلاثون خطوة، وهي مئتا ذراع.. وبلاطاته المتصلة بالقبلة ثلاثة مستطيلة من الشرق إلى الغرب، سعة كل بلاط منها ثماني عشرة خطوة، والخطوة ذراع ونصف، وقد قامت على ثمانية وستين عمودا، منها أربع وخمسون سارية ، وثماني أرجل جصية تتخللها، واثنتان مرخمّة ملصقة معها في الجدار الذي يلي الصحن ،.....) وتحدث عن أبوابه[٤].

شمسيات المسجد:

وعدد شمسياته الزجاجية المذهبة الملونة أربع وسبعون: منها في القبة التي تحت قبة الرصاص عشر، وفي القبة المتصلة بالمحراب مع ما يليها من الجدار أربع عشرة شمسية، وفي طول الجدار عن يمين المحراب ويساره أربع وأربعون، وفي القبة المتصلة بجدار الصحن ست، وفي ظهر الجدار إلى الصحن سبع وأربعون شمسية. وفي الجامع المكرم ثلاث مقصورات: مقصورة الصحابة -رضي الله عنهم- وهي أول مقصورة وضعت في الإسلام، وضعها معاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنهما- وبإزاء محرابها عن يمين مستقبل القبلة باب حديد، كان يدخل معاوية -رضي الله عنه- إلى المقصورة منه إلى المحراب. وبإزاء محرابها لجهة اليمين مصلى أبي الدرداء -رضي الله عنه- وخلفها كانت دار معاوية -رضي الله عنه-،[٥] وبالجامع المكرم عدة زوايا على هذا الترتيب يتخذها الطلبة للنسخ والدرس والانفراد عن ازدحام الناس، وهي من جملة مرافق الطلبة، كانت مزينة بالبلاط والزخرفة،[٦] وللجامع ثلاث صوامع : واحدة في الجانب الغربي، على شكل برج، يحتوي على مساكن متسعة وزوايا فيها سكن للغرباء، والبيت الأعلى منها كان معتكف أبي حامد الغزالي، رحمه الله.[٧]

(١) ابن جبير، رحلة، ص٢١١.

(٢) ابن بطوطة، تحفة، ص١٠٧.

(٣) خضر السرحان، الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في دمشق، المفرق،٢٠٠٩م، ص٩٨، سيشار إليه تاليا: السرحان، دمشق.

(٤) ابن جبير، الرحلة، ص٢٤٢،٢١٣.

(٥) المصدر نفسه، الرحلة ، ص٢١٤.

(٦)المصدر نفسه، الرحلة، ص٢١٥.

(٧) المصدر نفسه، الرحلة، ص٢١٥.

ساعة المسجد:

وعن يمين الخارج من باب جيرون، في جدار البلاط الذي أمامه، غرفة، ولها هيئة طاق كبير مستدير فيه طيقان صفر (قد فتحت أبوابا صغارا على عدد ساعات النهار ودبرت تدبيرا هندسيا .....، [١] وقد علل مصدر آخر سبب تسمية هذه القبة بذلك بأنها تعود للعصر الفاطمي، وكانت تسمى قبة زين العابدين، وكان يصنع فيها أنواع الساعات المختلفة فسميت قبة الساعة،[٢] وتحدث عن وصف الساحات الداخلية والقباب وبالتفصيل الدقيق، فذكر أنه كان في المسجد قباب كثيرة أهمها قبة الجامع الكبيرة، (ومن أعظم ما شاهدناه من مناظر الدنيا الغريبة الشأن، وهياكلها الهائلة البنيان، المعجزة الصنعة والاتقان، المعترف لوصفها بالتقصير لسان كل بيان .... فأبصرنا مرأى تحار فيه العقول، وتقف دون إدراك هيبة وصفه الافهام...، وهي كلها مذهبة بأبدع صنعة من التذهيب، مزخرفة التلوين، بديعة القرنصة، ويرتمي الأبصار شعاع ذهبها، وتتحير الألباب في كيفية عقدها ووضعها لإفراط سموّها. [٣]

وكانت أكبر هذه القباب مخزنا لمال الجامع، من خراجات ومستغلات تزيد على الثمانية آلاف دينار في السنة، وقبة أخرى صغيرة في وسط الصحن مجوفة مثمنة من رخام قد ألصق أبدع إلصاق، وفي وسطه أنبوب من الصفر يمج الماء فيشرب منه الناس. وفي الركن الشرقي من المقصورة الحديثة في المحراب خزانة كبيرة فيها مصحف من مصاحف عثمان -رضي الله عنه-، وهو المصحف الذي وجه به إلى الشام وتفتح الخزانة كل يوم إثر الصلاة فيتبرك الناس بلمسه وتقبيله ويكثر الازدحام عليه. أما أبواب المسجد فهي أربعة أبواب على النحو التالي:

١. الباب القبلي، ويعرف بباب الزيادة.
٢. الباب الشرقي، وهو أعظم الأبواب، ويعرف بباب جيرون.
٣. الباب الغربي، ويعرف بباب البريد.
٤. الباب الشمالي، ويعرف بباب الناطفيين.[٤] ومن الجدير ذكره أن ابن بطوطه ذكر نفس هذه الأبواب للجامع عندما زاره [٥].

السقايات والحمامات:

أورد ابن جبير معلومات مفصلة للمرافق التي احتوتها مدينة دمشق، ومنها الحمامات العامة، وأماكن السقايات، وقد عبر عن كثرة أماكن شرب الماء في طرق وشوارع مدينة دمشق بالقول: (وبهذه البلدة أيضا قرب مئة حمام فيها وفي أرباضها، وفيها نحو أربعين دارا للوضوء يجري الماء فيها كلها. وليس في هذه البلاد كلها بلدة أحسن منها للغريب؛ لأن المرافق بها كثيرة. وفي الذي ذكرناه من ذلك كفاية، والله يبقيها دار إسلام بمنه. والبلد كله سقايات قلما تخلو سكة أو سوق من أسواقه، من سقاية، والمرافق به أكثر من أن توصف[٦] وكانت السقايات المحيطة بالجامع الأموي يجري الماء في كل بيت منها، ثم تصب في صحن حوض من الحجر مستطيل تصب عبر عدة أنابيب منتظمة،[٧] وعن قنوات مياه دمشق وصفها ياقوت الحموي الحموي بأنها جنة الأرض بلا خلاف لكثرة الفاكهة وكثرة المياه: (فقلَّ أن تمر بحائط إلا والماء يخرج منه

(١) ابن جبير، الرحلة، ص٢١٩، ينظر شفيق الرقب، بلاد الشام في رحلة ابن جبير، الجامعة الأردنية، عمان ،٢٠٠٠م، ص٢٧٩،سيشار إليه تاليا: الرقب، بلاد الشام، ص٢٧٩.

(٢) ابن بطوطة، تحفة، ص١٠٨.

(٣) ابن جبير، الرحلة، ص٢٣٩.

(٤) المصدر نفسه، ص٢١٧.

(٥) ابن بطوطة، تحفة، ص١٠٩-١١٠.

(٦) المصدر نفسه، لرحلة، ص٢٢١.

(٧) ابن جبير، رحلة، ص٢٢١.

بأنبوب إلى حوض يشرب منه ويسقي الوارد والصادر، وما تجد بها مسجدا ولا مدرسة إلا والماء يجري على بركة صحن هذا المكان)،[١] وقد بلغ عدد حمامات دمشق في هذا العصر سبع وخمسون حماما ما عدا تلك الموجودة في الغوطة وقراها[٢].

المدارس:

تميزت مدينة دمشق بكثرة المدارس وما يلحق بها من دور للإيتام والغرباء من طلاب العلم الذين وفدوا للمدينة، كان ينفق عليها من أوقاف كبيرة خصصت لها (وللإيتام من الصبيان محضرة كبيرة بالبلد لها وقف كبير، يأخذ منه المعلم لهم ما يقوم به وينفق منه على الصبيان ما يقوم بهم وبكسوتهم؛ وهذا أيضا من أغرب ما يحدّث به من مفاخر هذه البلاد.[٣]

وتحدث عن بعض المدارس ووصفها وصف دقيقا بالقول: (ومن أحسن مدارس الدنيا منظرا مدرسة نور الدين -رحمه الله- وبها قبره، وقد ذكر أبو شامة (ت ٦٦٥ ه)، وابن شداد (ت ٦٨٤ هـ)، أن نور الدين زنكي أنشأها سنة ٥٦٣ ه،[٤] وكانت هذه المدرسة تحوي بيتا للأستاذ ومساكن للطلاب وحمامات وغير ذلك، تقوم بتدريس المذهب الحنفي وينفق عليها من أوقاف سخية أوقفها نور الدين وشجع الأثرياء على ذلك،[٥] وهناك مدراس أخرى الحقت بالجامع الأموي ودور لتعليم الأيتام، فيها غرف سكن لهم ولطلاب العلم الغرباء[٦] قد ذكر أن عدد المدارس في دمشق نحو عشرين مدرسة.

وبين دور بعض العلماء الورعين الزاهدين الذين تعلقوا بأعمال البر في إيواء طلاب العلم أهل الغرب من الغرباء المنقطعين بهذه الجهات، (يسبب لهم وجوه المعايش من إمامة في مسجد، أو سكنى بمدرسة تجرى عليه فيها النفقة، إلى غير ذلك من الوجوه المعاشية على هذه السبيل المباركة مما يطول شرحه. فالغريب المحتاج هنا، إذا كان على طريقة الخير، مصون محفوظ غير مريق ماء الوجه؛ حيث توفرت فرص العمل للطلاب الغرباء عن المدينة، مثلا في العمل ناطورا في بستان، أو عينا على حمّام أو طاحونة يكون أمينا عليها، أو كفالة صبيان يؤديهم إلى محاضرهم ويصرفهم إلى منازلهم، إلى غير ذلك من الوجوه الواسعة.[٧]

ومن مناقب نور الدين -رحمه الله تعالى- واهتمامه بطلاب العلم، أنه كان عين للمغاربة الغرباء، الملتزمين زاوية المالكية بالمسجد الجامع المبارك، أوقافا كثيرة، منها: طاحونتان، وسبعة بساتين، وأرض بيضاء، وحمام، ودكانان بالعطارين، وكان بعض الصالحين يوقفوا أموالهم على رعاية الغرباء بهذه البلدة أكثر من أن يأخذها الإحصاء، ولا سيما لحفاظ كتاب الله عز وجل، والمنتمين للطلب. فالشأن بهذه البلدة لهم عجيب جدا.[٨]

المارستانات[٩]:

(١) ياقوت الحموي، معجم،ج٢، ص٤٦٣.

(٢) ابن عساكر، التهذيب،ج١، ص٢٥١.

(٣) المصدر نفسه، الرحلة، ص٢٢٠، للمزيد ينظر، يسري عبد الغني عبد الله، دور الأوقاف الإسلامية في دعم التعليم والثقافة، دار العلم، القاهرة، ٢٠٠٩.

(٤) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، القاهرة ، د،ت ،ج ١ ،ص٢٢٩، ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، دار صادر، بيروت ،د.ت، ص ١٤٦.

(٥) أبو شامة، الروضتين، ج ١، ص٢٢٩، للمزيد ينظر أحمد شلبي، موسوعة الحضارة الإسلامية، دار النهضة المصرية، القاهرة،د.ت، ج٥، ص١٤٣.

(٦) ابن جبير، الرحلة، ص٢٣١، ينظر: ترجمة نور الدين زنكي عند ابن عساكر، علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي المعروف بابن عساكر (٤٩٩ – – ٥٧١ هـ)، تاريخ دمشق ، دار الفكر ، بيروت (د.ت)، سيشار إليه تاليا: ابن عساكر، دمشق.

(٧) ابن جبير، الرحلة، ص٢٢٥.

(٨) المصدر نفسه، الرحلة، ص٢٣٢.

(٩) للمزيد عن بيمارستان دمشق، ينظر: ترجمة نور الدين زنكي عند ابن عساكر، القرماني، أحمد بن يوسف القرماني (٩٣٩ – ١٠١٩هـ)، أخبار الدول وآثار الأول، تحقيق فهمي سعد، دار عالم الكتب، القاهرة ،١٩٩٢، سيشار إليه تاليا: القرماني، أخبار الدول، ص٢٧٩، أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن

كان فيها مارستانان قديم وحديث، والحديث أحلفهما وأكبرهما، وجرايته في اليوم نحو الخمسة عشر دينارا، وله قومة بأيديهم الأزمة المحتوية على أسماء المرضى، وعلى النفقات التي يحتاجون إليها في الأدوية والأغذية وغير ذلك، والأطباء يبكرون إليه في كل يوم، ويتفقدون المرضى، ويأمرون بإعداد ما يصلحهم من الأدوية والأغذية حسبما يليق بكل إنسان منهم. والمارستان الآخر على هذا الرسم، لكن الاحتفال في الجديد أكثر، وهذا القديم هو غربي الجامع المكرّم، وللمجانين المعتقلين أيضا ضرب من العلاج، وهذه المارستانات مفخر عظيم من مفاخر الإسلام [١]، أما قصة بناء هذا المشفى فتذكر بعض المصادر التاريخية أن السلطان العادل نور الدين محمود بن زنكي (٥١١ - ٥٦٦ هـ- ١١١٧-١١٧٤م) خلال حروبه مع الصليبيين كان قد أسر أحد ملوكهم، واستشار مجلس أعيانه بمصيره فأشاروا عليه أن يطلق سراحه مقابل فدية مالية كبيرة تنفق في بناء بيمارستان ليكون مشفى يقدم العلاج والدواء لكل مصاب، فأعجب بالفكرة وأطلق سراح هذا الملك بعد أخذ الفدية، واستقدم خيرة المهندسين والعمال العرب المهرة لبناء البيمارستان الذي كان فاتحة أعمال السلطان نور الدين بن محمود زنكي، ومن أعظم مآثره في المنشآت المدنية التي زخر بها عهده في دمشق. ويمكن القول: إن بناء البيمارستان له مغزى كبير، فإلى جانب المهمة الأولى التي يقوم بها وهي معالجة المسلمين وإصلاح الأوضاع الصحية، كان نور الدين يدرك أنه في حالة حرب مستمرة مع الصليبيين لا يعرف لها نهاية، وهذه الحروب التي يخوضها المسلمون من الطبيعي أن يكون هناك جرحى من المسلمين بحاجة إلى علاج، وكان فيه كل وسائل الراحة المتوفرة فيه، من طعام فاخرة التي تقدم للمرضى والمصابين، وعلاج مجاني للفقراء والأغنياء على حد سواء دون أن تكلف المرضى درهما واحدا؛ بل كانوا يمنحون لدى خروجهم من البيمارستان ثيابا ونقوداً تكفيهم للعيش دونما اضطرار للعمل لمدة أسبوعين (مدة فترة النقاهة). وكان للبيمارستان ناظر يشرف على إدارته، وكان النظر عليه معدودا من الوظائف الديوانية العظيمة، وفيه صيدلية تسمى شرانجاناه، ولها رئيس يسمى شيخ البيمارستان[٢].

وقد أسر بنفسه في بعض الغزوات بعض ملوك الإفرنج فاستشار الأمراء فيه هل يقتله أو يأخذ ما يبذل من المال؟ وكان قد بذل له في فداء نفسه مالاً كثيراً، فاختلفوا عليه ثم حسن في رأيه إطلاقه وأخذ الفداء منه، فبعث إلى بلده من خلاصته من يأتيه بما افتدى به نفسه، فجاء به سريعاً فأطلقه نور الدين، فحين وصل إلى بلاده مات ذلك الملك ببلده، فأعجب ذلك نور الدين وأصحابه، وبنى من ذلك المال المارستان الذي بدمشق، وليس له في البلاد نظير، ومن شرطه أنه على الفقراء والمساكين وإذا لم يوجد بعض الأدوية التي يعز وجودها إلا فيه فلا يمنع منه الأغنياء[٣].

الأسواق والسلع:

لقد انبهر ابن جبير على حد قول أحد الباحثين المحدثين[٤] بتنظيم مدينة دمشق في ذلك الزمان، فقد احتوت على أسواق كثيرة كبيرة متنوعة السلع، ولشدة إعجاب ابن جبير بها قال واصفا إياها: (وأسواق هذه البلدة من أحفل أسواق البلاد وأحسنها انتظاما وأبدعها وضعا، ولا سيما قيسارياتها[٥]، وهي مرتفعات كأنها

إسماعيل بن ابراهيم بن عثمان المقدسي الدمشقي الشافعي أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين،١٩٩٧،ص٤٤، سيشار إليه تاليا: أبو شامة، الروضتين، ص٤٤، المنجد صلاح الدين، بيمارستان نور الدين بدمشق، دمشق،١٩٧٩،ص٤٦، سيشار إليه تاليا: المنجد، بيمارستان.

(١) ابن جبير الرحلة، ص٢٣١.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي ،الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ. ١٢/ ٣٥٢،

(٣) للمزيد ينظر، جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، دار المحرر الأدبي، القاهرة، (د.ت)ج٣، ص٢١٨، غزوان ياعي، المعالم الأثرية للحضارة الإسلامية ،الرباط،٢٠١١، ص١٥٥.

(٤) مديحة يعقوب، المجتمع الإسلامي من خلال رحلة ابن جبير، رسالة ماجستير جامعة الأنبار، العراق، ٢٠١٧ص٢٩٤، سيشار إليه تاليا: يعقوب، المجتمع .

(٥) القيسارية: هي مباني مرتفعة لأغراض تجارية وفيها أماكن لنوم التجار تتكون من طابقين الأول مكان لوضع السلع والثاني مكان لنوم التجار والمسافرين، ينظر لينا سعد، نماذج من فنون العمارة الإسلامية، لندن،٢٠٠٥، ص٧٣.

الفنادق مثقفة كلها بأبواب حديد كأنها أبواب القصور، وكل قيسارية منفردة بضبتها وأغلاقها الجديدة. ولها أيضا سوق، يعرف بالسوق الكبير، يتصل من باب الجابية إلى باب شرقي، وفيه بيت صغير جدا قد اتخذ مصلى، وكانت هذه الأسواق مزودة بالحمامات والمياه.[١]

لقد كانت أسواق دمشق إبان عصر رحلة ابن جبير مدعاة لدخول السرور، وكان تنظيم الأسواق وترتيبها محل عناية وتركيز من كتبوا عنها في تلك المدة؛ حيث كانت دمشق نقطة التقاء لغالبية تجار الشام، وأن البضائع ترد إليها من مختلف المناطق المجاورة، فكانت مركز التجارة في تلك الفترة،[٢] وهذا يشير إلى أن دمشق شهدت خلال العصرين الأيوبي والمملوكي ازدهارا اقتصاديا، فنشطت الزراعة والصناعة والتجارة بسبب الاستقرار الأمني الذي تمتعت به، وأمَّها التجار من كل مكان للشراء من سلعها الكثيرة، حيث وصف أحد المصادر المعاصرة لابن جبير الحالة بالقول: (وصناعتها نافقة وتجارتها رابحة وهي من أعز البلاد وأكملها حسنا)[٣]، وقد امتازت أسواق دمشق بتوفر جميع السلع فيها، ووصف هذا أحد الجغرافيين بالقول: (ومن المحال أن يطلب بها سيء من جليل أغراض الدنيا ودقيقها إلا وجد من جميع البلاد)،[٤] وكانت أسواقها مقسمة حسب السلع، ولكل سوق سلعة معينة، أو حرفة معينة مثل الدباغة والصباغة، وقد وصل عدد أسواقها إلى مئة وتسعة وثلاثين سوقا[٥].

كانت أشهر السلع في أسواقها المواد الغذائية المختلفة والفاكهة والحبوب والمربيات والحلويات والألبان والأجبان إضافة إلى الأقمشة والمنسوجات المختلفة،[٦] وقد اشتهرت دمشق بالصناعات المعدنية من حلي وزينة ونحاسيات وأدوات حديدية وجلود وأحذية وسروج وعطور عدا عن ما يباع في الأسواق المتفرقة من زجاج وورق ومصنوعات خشبية وغير ذلك،[٧] وانتشر فيها وجود حوانيت لبيع السروج وأواني الطبخ والغزل وغير ذلك[٨].

آثار العمارة والمشاهد الدينية:

أولا: قلعة دمشق:

ولهذه البلدة قلعة يسكنها السلطان منحازة في الجهة الغربية من البلد، وبها جامع السلطان يجمع فيه، وعلى مقربة منها غابة، والنهر بينهما، وغيضة عظيمة من الحور متصلة بهما، وهما من أبدع لمناظر، يخرج السلطان اليهما ويلعب فيهما بالصوالجة ويسابق بين الخيل فيهما، وفي كل ليلة يخرج أبناء السلطان اليهما للرماية والمسابقة واللعب بالصوالجة،[٩] وهذه القلعة يحيط بها سور عظيم وخندق يطوف الماء منه بالقلعة وإن دعت الحاجة أطلق على جميع الخنادق المحيطة فيملؤها)، وكانت هذه القلعة مجهزة حيث تحتوي على حوانيت للبيع ودار لضرب النقود[١٠].

ثانيا: المشاهد الدينية:

(١) ابن جبير ، الرحلة،ص٢٢٣.

(٢) السرحان ،دمشق ،ص٩٠.

(٣) الإدريسي ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة،٢٠٠٢٥، ص٣٦٩، سيشار إليه تاليا: الإدريسي، نزهة.

(٤) ياقوت الحموي، معجم،ج٢، ص٤٦٥.

(٥) سارة ميمنة، جيمورفولوجية دمشق، مجلة الفكر العربي ، عدد٢٩، بيروت،١٩٨٢، ، ص٢٤١.

(٦) ينظر ياقوت الحموي، معجم ،ج٢، ص٤٦٤، ابن عساكر ، تاريخ دمشق، ج٥، ص٣٧٩.

(٧) للمزيد ينظر نخالد الحلقي، أسواق دمشق التجارية في العصرين الزنكي والأيوبي ، رسالة ماجستير، جامعة عين شمس،٢٠٠٢، ص٢١٥، سيشار إليه تاليا: الحلقي، أسواق.

(٨) ميمنة، مورفولوجية، ص٢٤١.

(٩) ابن جبير، الرحلة، ص٢٢٤.

(١٠) نقلا عن السرحان، دمشق، ص٧٨،٧٩.

ذكر ابن جبير مجموعة من الآثار والمشاهد في مدينة دمشق والمقامات والقبور في جبل قاسيون: حيث كان ينفق عليها من أموال الأوقاف: (ولكل مشهد من هذه المشاهد أوقاف معينة من بساتين وأرض بيضاء، وهذه أيضا من المفاخر المخلدة،[١] ومن المشاهد والآثار الدينية التي ذكرها ابن جبير :

- الربوة المباركة: وينسبها ابن جبير إلى نبي الله عيسى وأمه مريم -عليهما السلام- وأنها هي الربوة المقصودة بقول الله تعالى: "وآويناهما إلى ربوة ذات قرار معين".[٢] ولكن بعض المصادر تنكر ذلك، وأنها ليست الربوة المقصودة لأن عيسى عليه السلام لم يدخل دمشق،[٣] وكذلك نفى القزويني أن يكون عيسى عليه السلام دخل دمشق[٤].

- قبر نبي الله يحيى -عليه السلام- ووصفه بالمشهد المعظم: (فأولها مشهد رأس يحيى بن زكرياء -عليه السلام- وهو مدفون بالجامع المكرم في البلاط القبلي، وعليه تابوت خشب معترض من الأسطوانة، وفوقه قنديل كأنه من بلور مجوف [٥]، وقد شكك باحث محدث وجود رأس نبي الله يحيى في المسجد ويقول: (أنه كان في موضع المسجد الأموي سابقا كنيسة اسمها مار يوحنا ثم تحولت إلى المسجد الأموي الجامع بحكم الفتح، ولعل التقليد القائل بأن في المسجد رأس يحيى بن زكريا -عليه السلام- أتى من كون الكنيسة كانت على اسم مار يوحنا وهو يحيى -عليه السلام- والله أعلم).[٦]

- مدافن الأنبياء والشهداء:

ينسب ابن جبير ذلك إلى ابن عساكر: (وقد ذكره الحافظ ابن عساكر الدمشقي في تاريخ دمشق أن جبل قاسيون، مدفن سبعين ألف نبي، وقيل سبعون ألف شهيد .....، والله أعلم.[٧]، وقد نفى ابن تيمية هذه القبور وقال إن ذلك لم يثبت[٨] وخارج هذا البلد الجبانة العتيقة، وهي مدفن الأنبياء والصالحين، ذكر أنها مدفن مدفن سبعين نبيا، وعصمها الله ونزهها من أن يدفن فيها أحد، والقبور محيطة بها.[٩] وقد نفى العلماء وجود هذه القبور[١٠].

- كهف آدم -عليه السلام- ومشهد هابيل وقابيل: (وفي أعلى الجبل كهف منسوب لآدم، ﷺ، وعليه بناء، وهو موضع مبارك. وتحته في حضيض الجبل مغارة تعرف بمغارة الجوع، ذكر أن سبعين نبيا ماتوا فيها جوعا، وكان عندهم رغيف فلم يزل كل واحد منهم يؤثر به صاحبه ويدور عليهم من يد إلى يد حتى لحقتهم المنية، صلوات الله عليهم. وعلى هذه المغارة أيضا مسجد مبني، وأبصرنا فيه السرج تقد نهارا.[١١] ويجبل قاسيون أيضا لجهة الغرب، مغارة تعرف بمغارة الدم؛ لأن فوقها في الجبل دم هابيل قتيل أخيه قابيل ابني آدم،[١٢] وقد نفى سبط ابن الجوزي ذلك بالقول إن هذه (لا تصح وليس لها سند)[١].

---

(١) المصدر نفسه، ص٢٢٣.

(٢) سورة المؤمنون،آية ٥٠.

(٣) الهروي، الإشارات إلى معرفة الزيارات، نقلا عن السرحان، دمشق، ص٨٢.

(٤) القزويني، آثار البلاد، ص١٩١.

(٥) المصدر نفسه، الرحلة، ص٢٢٤.

(٦) محمد كرد علي، خطط الشام، دمشق، (د.ت)،ج٦، ص٣٢.

(٧) ابن جبير، الرحلة، ص٢٢٢، للمزيد ينظر، ابن سعد، الطبقات الكبرى، مكتبة الخانجي القاهرة ،د.ت. ص٧٤، سيشار إليه تاليا: ابن سعد.

(٨) ابن تيمية، مجموع الفتاوى،ج٢٧، ص٤٨.

(٩) ابن جبير، رحلة، ص٢٢٢.

(١٠) للمزيد ينظر، ابن تيمية، مجموع الفتاوى،ج٢٧، ص٤٨، شمس الدين ابن سبط الجوزية، (ت٦٥٤هـ) مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، تحقيق كامل الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت ،١٩٧١،ج١، ص١٣٦.

(١١) المصدر نفسه، الرحلة، ص٢٢٣.

(١٢) المصدر نفسه، ص٢٢٣، لم يرد في القرآن الكريم تفصيل عن مكان الحادثة، ويبدو أنها أسطورة تناولها الناس في عصرهم عن ذلك المكان.

- مقامات الأنبياء: في جبل قاسيون: (وفيه مغارة صلى فيها إبراهيم وموسى وعيسى ولوط وأيوب،[٢] وهي من المشاهد التي يبدو أن الناس تداولوا الروايات الشعبية وسمعها ابن جبير ونقلها دون سند أو تحقق من صحتها.

- مغارة المسيح -عليه السلام- في جبل قاسيون: (الربوة المباركة المذكورة في كتاب الله تعالى: مأوى المسيح وأمه -صلوات الله عليهما- وهي من أبدع مناظر الدنيا حسنا وجمالا وإشراقا وإتقان بناء واحتفال تشييد وشرف وضع، هي كالقصر المشيد، ويصعد إليها على أدراج، والمأوى المبارك منها مغارة صغيرة في وسطها)،[٣] ولم يثبت تاريخيا أن عيسى -عليه السلام- قد دخل مدينة دمشق، ولكن الثابت أنه -عليه السلام- سينزل من السماء قبل يوم القيامة ليحكم بشريعة سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم- [٤].

- مقام نبي الله الخضر -عليه السلام- ومكان مولد إبراهيم -عليه السلام- في قرية تعرف ببيت لاهية [٥] ومعلوم أن سيدنا إبراهيم كان مولده وبعثته في بابل من بأرض العراق، ونفى ابن سبط الجوزي ذلك، وقال إن هذه المعلومات مستقاة من التوراة وليس لها أصل في الإسلام.[٦]

- مقبرة الصحابة: (وبغربي البلد جبانة كبيرة تعرف بقبور الشهداء، فيها كثير من الصحابة والتابعين الأئمة الصالحين، رضي الله عنهم، .....هذا الموضع المذكور، على مقربة منه، قبر بلال بن حمامة مؤذن رسول الله، ﷺ. وفي رأس القبر المبارك تاريخ باسمه، رضي الله عنه.[٧].

- قبر أم حبيبة -رضي الله عنها-: (وقرأت في فضائل دمشق: أن أم المؤمنين أم حبيبة أخت معاوية -رضي الله عنهما- مدفونة بدمشق).[٨] وهذا غير صحيح حيث عرف قبر أم حبيبة -رضي الله عنها- بالمدينة المنورة، وهذا ما قال به ابن تيمية[٩] .

- مشهد سعد بن عبادة رئيس الخزرج، صاحب رسول الله -ﷺ- وهو بقرية تعرف بالمنيحة شرقي البلد وعلى مقدار أربعة أميال منه، وعلى قبره مسجد صغير حسن البناء، والقبر في وسطه، وعند رأسه مكتوب: هذا قبر سعد بن عبادة رأس الخزرج، صاحب رسول الله -ﷺ-.[١٠] وذكر مشاهد منسوبة إلى أهل البيت، رضي الله عنهم[١١].

- قبر أويس القرني -رضي الله عنه-[١٢]، وقبور خلفاء بني أمية -رحمهم الله- وقد نفى ابن تيمية أن يكون القبر لأويس وأنه لم يدخل الشام بل سكن العراق،[١] والمشاهد المباركة في هذه البلدة أكثر من أن تنضبط بالتقييد.

---

(١) سبط ابن الجوزي مرآة، ج١، ص١٣٦.

(٢) ابن جبير، الرحلة، ص٢٢٢.

(٣) المصدر نفسه، الرحلة، ص٢٢٣.

(٤) ينظر البخاري، باب نزول عيسى بن مريم ،٢٢٢٢.

(٥) ابن جبير، رحلة ص، ٢٢٥.

(٦) ابن سبط الجوزي، مرآة،ج١، ص١٣٦ وما يليها .

(٧) المصدر نفسه، ص٢٢٦.

(٨) المصدر نفسه، ص٢٢٦،هذا القول خاطئ حيث إن أم حبيبة عاشت حياتها في المدينة المنورة وتوفيت بها سنة ٤٤هجري، في خلافة أخيها معاوية بن أبي سفيان، للمزيد ينظر ابن سعد، الطبقات، ج٨، ص١٢٠.

(٩) ابن تيمية، مجموع الفتاوى،ج٢٧، ص ٤٨، عمر بن شبه النميري البصري، دار الكتب العلمية القاهرة ،١٤١٧هـ،ج١، ص٧٩.

(١٠) المصدر نفسه، الرحلة، ص٢٢٧.

(١١) ابن جبير، رحلة، ص٢٢٨.

(١٢) المصدر نفسه، الرحلة، ص٢٢٨.

النتائج:

١- أورد ابن جبير معلومات عن أماكن ومواضع لم تذكرها المصادر التاريخية قبله أو بعده حيث انفرد بها بحدود اطلاع الباحث، مثل موضع البيت الذي ولد فيه الرسول، وكذلك قبور الأنبياء الموجودة في جبل قاسيون في دمشق وغيرها.

١- امتاز ابن جبير بوصف العمارة وهندستها بشكل لافت للنظر، وخاصة أعمدة البناء والبلاط والقبب والسقوف وغيرها.

٢- اهتم بالحديث عن الأماكن الدينية حتى بيوت ومقامات الأنبياء والصحابة والصالحين في مكة ودمشق.

٣- اهتم بوصف الأسواق والسلع التي كانت تباع بها من لحوم وفاكهة وغيرها.

٤- إن رحلة ابن جبير تعد مصدرا مهماً من مصادر تاريخ مكة المكرمة ودمشق بخاصة، فقد خصص ابن جبير لمكة حوالي (٧٢) صفحة من أصل ٢٤٠ صفحة من رحلته. أي إنه كرس ٣٠% من كتابه لمكة المكرمة لوحدها. فهو المصدر الأهم دون منازع عن مكة في القرن السادس الهجري، في حين خصص لبلاد الشام حوالي ٦٦صفحة من رحلته كان نصيب دمشق منها لدمشق حوالي ٣٢صفحة، حيث شملت رحلته وصفا مفصلا لما كانت عليه المدينة في ذلك الوقت، وما تحويه من آثار، وعمائر دينية ومدنية، وأسواق إلى غير ذلك.[٢]

٥- حوت رحلة ابن جبير الكثير من المعلومات المختلفة في النواحي السياسية والحضارية، والتي تهم الدارسين لتلك الحقبة، فوصف ابن جبير كل ما شاهده في طريقه حتى عودته لغرناطة مرة أخرى عام ٥٨١هـ/م.١١٨٥

٦- عنى ابن جبير بالمرافق الملحقة بالمساجد، وكذلك وصف الأسواق بعناية فائقة، فمشاعر الحج كلها مدونة، وصعوبات السفر، ومواكب الأمراء، وتجارة مكة كلها موصوفة وصفا بارعا دقيقا. كما عُني ابن جبير عناية كبير بوصف آثار دمشق وجامعها الأموي، ومعالمها الدينية، وأسواق مكة ودمشق، ومساجدها، وكذلك مقامات، وأسواق، وآثار مدينة دمشق، وكان وصف ابن جبير للأحداث والأماكن والمباني أكثر تفصيلاً. فهو يصف المسجد الحرام والمسجد الأموي وصفا دقيقاً، لا يترك فيه صغيرة ولا كبيرة لكنه وصف من الخارج. ولكنه وصف أصم يصلح لأن يقيم به مهندس معماري، نموذجا أو خريطة لموضوعاته، إذ هو للأسف خلو من شعور الواصف وأحاسيسه، أو من أي تصوير لأحاسيس الناس في تلك المواقف العظيمة.

٧- أجاد ابن جبير في وصف البلاد والعباد وأحوالهم الاقتصادية، وأهم المنتجات والسلع السائدة، ومن الموضوعات الاقتصادية التي كتب عنها في شيء من التفصيل، كوصفه لخيرات مكة وفواكهها وخضرواتها، ولا يفهم من هذا إنه قد أفرد للجانب الاقتصادي مبحثا خاصا، ولكنه يستنتج من خلال كلامه ومن واقع معايشته هناك وأبدع في وصف بساتين مياه وأشجار وفاكهة دمشق.

٨- حفلت رحلته بالمدح والثناء على عدد من الأموات والأحياء لصلاحهم وتقواهم، ونلمس خلق ابن جبير في مدح من يستحق المدح كصلاح الدين وذم من يستحق الذم دون تجاوز أو تطاول.

---

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى،ج٢٧، ص٤٦.

(٢) ينظر أعلاه من البحث.

٩- عمل ابن جبير على التأكد مما يشاع بين الناس عن زيارة ماء زمزم، وقيامه بقياسه للتأكد فعلا من زيارته أو نقصانه في منتصف شهر شعبان، حيث أثبت بطلان زعم زيادته.
١٠- لم يعرض ابن جبير لعدد السكان في مكة أو دمشق، ويبدو أن الاهتمام بالإحصاءات لم يكن سمة غالبة لديه ولا لدى أهالي البلاد، فلم يذكر عدد سكان مكة في زمن زيارته.
١١- وصف ابن جبير للحجر الأسود بأنه أربع قطع يخالف واقع الحال، فعددها كما حققه محمد طاهر الكردي الخطاط المكي هو ثماني قطع منتظمة على شكل حرف الواو المعكوس، خمسة منها كبار الحجم نسبيا، واثنتان متوسطتا الحجم نسبياً، وواحدة هي أصغرهن حجما، وكذلك أسهب في وصف عمارة المسجد الأموي وزخرفته ورخامه والملحق به.
١٢- وصف ابن جبير داخل الكعبة بدقة متناهية، فقد أمضى مدة طويلة نسبياً بمكة أتاحت له دخول الكعبة عدة مرات والتدقيق فيها؛ لذا تعد رحلته مصدراً مهماً في هذا الجانب. فالرحلات الأخرى أغفلت الحديث عن هذا الجانب إما لعدم دخول الرحالة الكعبة أو لعدم تمكنهم من وصفها بدقة لقصر بقائهم بداخلها.
١٣- بين ابن جبير أهمية ودور الجامع الأموي في دمشق، حيث كان الناس يجتمعون فيه لطلب العلم والتنزه أحيانا ولمناقشة بعض الأمور الاجتماعية، وهذا يذكرنا بما كان عليه الأمر في المسجد النبوي في عصر الرسول -صلى الله عليه وسلم-.
١٤- يبدو أن ابن جبير تسرع أحيانا في ذكر بعض الأساطير التي كان يتداولها الناس في زمانه، مثل قصة موضع حادثة هابيل وقابيل.

قائمة المصادر المراجع:

القرآن الكريم
١. ابن عساكر، علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي المعروف بابن عساكر (٤٩٩ - ٥٧١ هـ)، تاريخ دمشق، دار الفكر، بيروت،د.ت.
٢. القرماني، أحمد بن يوسف القرماني (٩٣٩ - ١٠١٩هـ)، أخبار الدول وآثار الأول، تحقيق فهمي سعد، دار عالم الكتب، القاهرة ،١٩٩٢.
٣. المنجد صلاح الدين، بيمارستان نور الدين بدمشق، دمشق،١٩٧٩.
٤. أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان المقدسي الدمشقي الشافعي أبو شامة الروضتين في أخبار الدولتين،١٩٩٧.
٥. شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت،١٩٩٣.
٦. ابن الجزري، الإمام شمس الدين الدمشقي، ت٨٣٣ه، غاية النهاية في طبقات القراء، دار الكتب العلمية، بيروت ،١٩٧١.
٧. ابن سعد، الطبقات الكبرى، مكتبة الخانجي القاهرة، د.ت.
٨. ابن الخطيب، لسان الدين (٧٧٦هـ/١٣٧٤م)، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق عبد الله عنان، ط١، الشركة المصرية للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٧٤.
٩. ابن خلدون، العبر، تحقيق: أبو صهيب الكرمي .بيت الأفكار الدولية.د.ت.
١٠. الطنطاوي، علي، الجامع الأموي، دمشق،١٩٦٠.
١١. المراكشي، أبو عبد الله محمد الأنصاري، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت ،١٩٦٤.
١٢. المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت،١٩٨٨، ج٢.
١٣. خليفة، حاجي، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار صادر، بيروت ١٩٧٩.
١٤. زيادة، نقولا، رواد الشرق العربي في العصور الوسطى، دار لبنان للطباعة ،١٩٨٦.
١٥. شفيق الرقب، بلاد الشام في رحلة ابن جبير، الجامعة الأردنية، عمان ،٢٠٠٠.
١٦. عبد القدوس الأنصاري، مع ابن جبير في رحلته، ط١، المطبعة العربية الحديثة، القاهرة ١٩٧٦.
١٧. عكاوي، رحاب خضر، موسوعة عباقرة الإسلام، القاهرة، د.ت.
١٨. ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار الفكر د. ت.
١٩. ابن القاضي، جذوة الاقتباس فيمن حل على مدينة فاس، دار المنصور، الرباط ،١٩٧٣.
٢٠. أحمد رمضان، أحمد، الرحلة والرحالة المسلمين، دار البيان، جدة، د.ت.
٢١. التجيبي، القاسم بن محمد، مستفاد الرحلة والاغتراب، تحقيق عبد الفيض منصور، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس ١٩٧٥.
٢٢. الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، المكتب التجاري للنشر، بيروت.د.ت.
٢٣. المقريزي، المقفى الكبير، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩١.
٢٤. أحمد بن محمد المقري (١٠٤١هـ/١٦٣١م)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٦٨.
٢٥. أحمد، رمضان أحمد، الرحلة والرحالة المسلمون، دار البيان العربي، جدة، د.ت.
٢٦. الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق بشار عواد، مؤسسة الرسالة، بيروت.د.ت
٢٧. زكي الدين عبد العظيم المنذري (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، التكملة لوفيات النقلة، تحقيق بشار عواد، مؤسسة الرسالة، ١٩٨١.

٢٨. زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى زكي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٢.
٢٩. شكيب أرسلان، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، مؤسسة هنداوي للتعليم، القاهرة ،٢٠١٢.
٣٠. عبد العزيز قاسم أحمد، ابن جبير حياته وأدبه، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، الأردن،١٩٩٢.
٣١. عبد الله كامل، الأمويين وآثارهم المعمارية في الشام والعراق ومصر وإفريقيا، دار الآفاق العربية، بيروت.د.ت.
٣٢. عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين، مكتبة فهد الوطنية، الرياض ١٩٩٦.
٣٣. قنديل، فؤاد، أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة ٢٠٠٢.
٣٤. كراتشكوفيسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، منشورات جامعة الدول العربية، دار لسان العرب، القاهرة ،١٩٨٤.
٣٥. مديحة يعقوب، المجتمع الإسلامي من خلال رحلة ابن جبير، رسالة ماجستير جامعة الأنبار، العراق، ٢٠١٧
٣٦. حسين نصار، أدب الرحلة، الشركة المصرية العالمية للنشر القاهرة ١٩٩١م.
٣٧. علي محسن عيسى مال الله، أدب الرحلات عند العرب :نشأته وتطوره حتى نهاية القرن الثامن الهجري، وزارة الثقافة والفنون، مطبعة الإرشاد، بغداد،١٩٧٨.